

# سلمى الإسوانية:

تأليف : عبدالوهاب الأسواني









الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

---

القصة الفائزة بجائزة  
نادى القصة الأولى لسنة ١٩٦٦

---

الغلاف : للفنان محمد قطب  
الرسوم : للفنان سعيد المسيرى



---

# سلي الأسيوانية

عبدالوهاب الأسواني

---







## الفصل الأول

قطار الصعيد من جديد .. للمرة العشرين ان لم تزد .. ضجيج المسافرين بمحطة القاهرة لا ينقطع .. أشعر بالضجر من الآن .. فكيف الحال وأنا ساقضي في مكانى هذا أكثر من خمس عشرة ساعة .. ساقضيها كلها فى قلق وذهنى مشغول ببرقية أبى التى يطلب منى فيها الحضور فوراً .. ترى لماذا ؟ .. هل أمى مريضة ؟ .. لو كانت مريضة لقال ذلك فى برقيته .. هل المريضة هى اختى ؟ .. حتما كان سيدكر ذلك أيضا .. اذن ماذا ؟

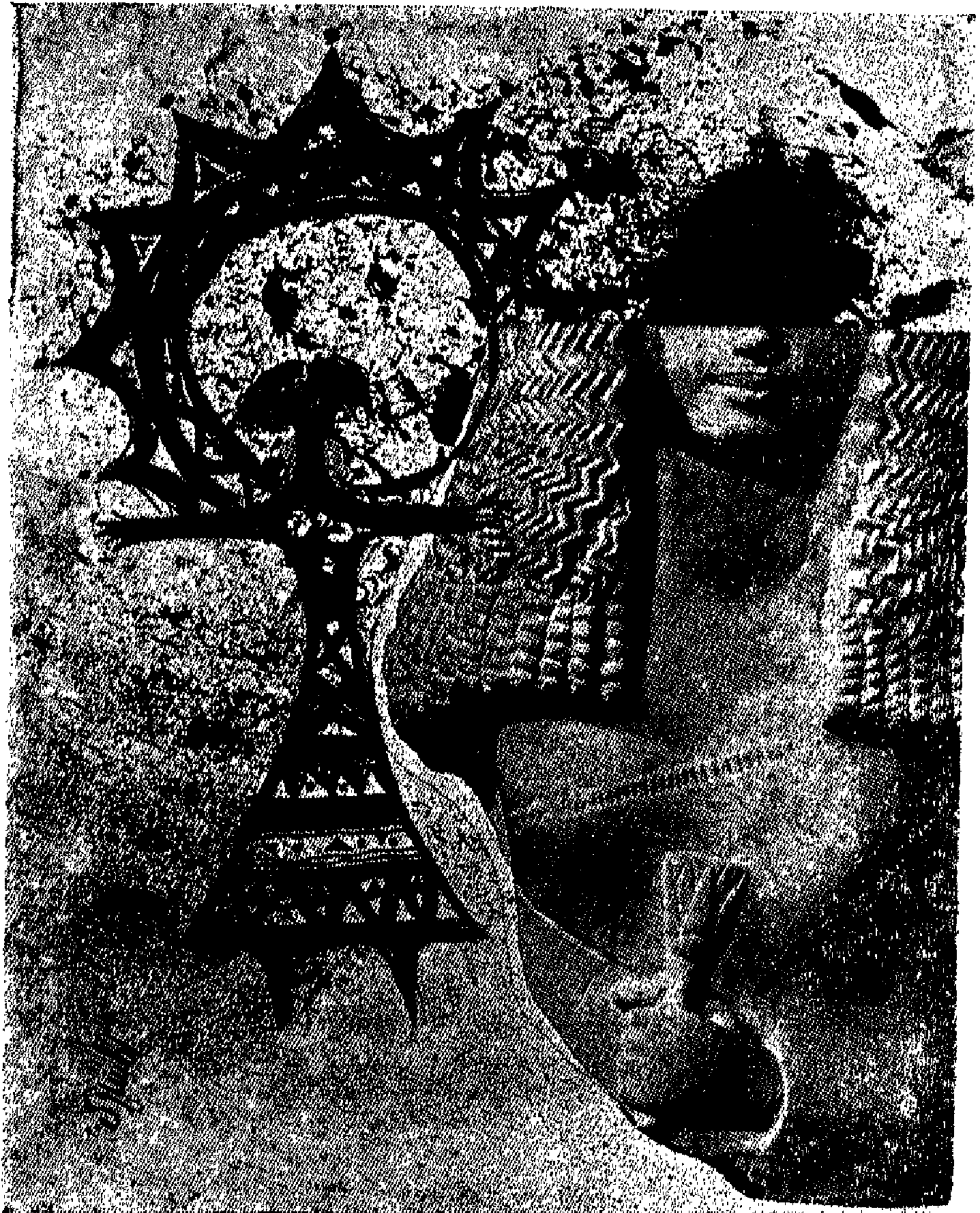
حينما تسلمت البرقية لم استطع حتى ان أفكر فى الأمر .. فانا أعرف والذى جيداً .. هو من ذلك الطراز الذى اذا اصدر أمراً ونوقش فيه - مجرد مناقشة - أقام الدنيا وأقعدها وأدخل الانسان فى عدة مشاكل لا يعرف معها رأسه من قدميه ! ..

هو صارم جداً .. لكنه طيب جداً .. يكفى ان يطاع فى الظاهر وتنفذ أوامره .. بعد ذلك هو مستعد أن يمد يديه ليقيد ويخالف فى الباطن ولا ينفذ له أمر .. أما اذا كانت هناك مخالفة علنية أو مجرد مناقشة .. فيا أيتها الدواهى : دقى !



بدأ القطار يتحرك .. فى المقعد المقابل رجل فى حوالى الأربعين من عمره .. يضع على ركبتيه (بالطو) ثقيلاً .. خلع نظارته السوداء







وراح يتطلع الى في تودد .. لا بأس من ان أشجعه على الكلام ..  
فالتريق طويل ولا يستطيع الانسان ان يقطعه صامتا .. تطلع الى  
سمرتى وقال :

— اسوان ؟

— ان شاء الله

— اسوان نفسها ؟

— لا .. قبلها بقليل

— اين ؟

ترددت قبل أن أقول :

— بلدة صغيرة .. اسمها المنصورية

هتف بمجرد سماعه الاسم

— الجزيرة ؟

دهشت وسررت في آن واحد .. فقلت :

— نعم .. هل زرتها ؟

قال في سرور :

— نعم .. زرتها كثيرا مع أبى .. كان يعمل صرافا وقتها .

ثم استطرد وهو يضحك :

— يالها من جزيرة عجيبة !

سأله :

— ما العجيب فيها ؟ ...

قال ولا يزال يوالى ضحكه :

— يخيل الى ان الحياة في جزيرتكم تختلف عنها في أى مكان

آخر .. وأعجب ما عندكم هو نظام القبائل ..

ومر علينا بائع سجائر .. اشترى منه علبة وناولنى سيجارة

واشعل لنفسه أخرى ثم استطرد قائلا :

— كل عائلة كبيرة عندكم تطلق على نفسها اسم قبيلة ..

نظام عربى قديم .



— نعم . . . أهل الجزيرة ينحدرون من اصول عربية قديمة .  
قال وهو يهز رأسه :

— فعلا . . . من لهجتهم الانسان يدرك ذلك . . . اللهجة اقرب  
ما تكون الى الفصحى لولا بعض الكلمات الغريبة .  
قلت :

— الكلمات الغريبة جاءت من جوارهم للنوبيين واختلاطهم بهم  
ثم سأله :

— الى أين ؟

قال :

— الاقصر

قلت :

— سنقضى معا أكثر الوقت

قال :

— ان شاء الله

ثم سألتني :

— العمدة مرعى . . . موجود ؟

قلت :

— توفي منذ زمن

ظهر عليه الأسى وقال :

— الله يرحمه . . . كان رجلا ولا كل الرجال

لم أشأ أن أقول له ان جزيرتنا استراحت بموت العمدة  
مرعى . . . وانه كان يثير المشاكل مع القرى المجاورة ويحرض أهل  
جزيرتنا على قتالهم فتتشب المعارك الطاحنة لأتفه الأسباب .

جلب نفسا عميقا من سيجارته وقال :

— رأيته مرة يركب حصانه الأبيض ويفض — وحده — معركة

نشبت بين بلدكم وبين بلدة ( دراو ) . . . بمجرد أن صاح فى الناس

« ارجع يا ولد » انفصل الفريقان !



هذا الرجل له الظاهر .. اما الحقيقة فهي ان العمدة كان يصيح بأعلى صوته ( ارجع يا ولد ) بينما يقول بصوت منخفض ( ادخل يا ولد ) .. وحينما يريد للمعركة ان تنتهى يصيح ( ارجع يا ولد ) بنغمة خاصة متفق عليها ..

قطع الرجل أفكارى بقوله :

- كان شجاعا .. هه ؟

- لا شك فى ذلك !

ثم مد جذعه الى الامام وقال :

- من العمدة الآن ؟

- ابنه .. دياب

عقد ما بين حاجبيه وقال :

- ذلك الغبى أصبح عمدة ؟

- طبعا .. بالوراثة !

ضحك وقال

- الا يزال بدينا ؟

قلت :

- ازداد بدانة !

وترقبنا عامل ( البوفيه ) فلم نر له أثرا .. وقام الرجل

وهو يقول

- سأتيك به حالا ..

حديث الرجل يخفف عني قلقى الذى سببته برقية أبى الغامضة .. وردنى الى التفكير فى جزيرتى الجميلة التى تثير الخيال .. ترى .. لو ان جغرافيا عالميا زار جزيرتنا وعاش فيها لبعض الوقت .. وأراد ان يكتب عنها .. ماذا كان سيكتب ؟ .. أغلب ظنى أنه سيكتب :

« جزيرة كبيرة يحيطها النيل من جهاتها الاربع .. سكانها يتفرعون الى عشر قبائل امتزجت عاداتها العربية بالعوادات النوبية



.. سكان الجزيرة لا يعترفون بأن بلدتهم مجرد جزيرة تتوسط  
نهر النيل .. يعتقدون بأنها امبراطورية مترامية الاطراف ومن  
حقها أن تتعامل مع القرى التي تجاورها كما تتعامل أية امبراطورية  
عظيمة مع البلاد التي تقل عنها شأنًا .. ولها الحق في ان تعين  
السفراء .. وتبرم المعاهدات .. وتعد الصفقات التجارية ..  
فاذا غضبت من قرية مجاورة ، قطعت معها العلاقات الدبلوماسية  
والثقافية والتجارية .. وربما أعلنت عليها الحرب !!

وأبناء الجزيرة معروفون بالنشاط والمغامرة وحب الاسفار  
.. يملكون أكبر أسطول من المراكب الشراعية في المنطقة .. أسطول  
يتكون من قطع كثيرة منها الصغيرة التي لا تتسع لأكثر من أربعة  
أشخاص .. ومنها ( البطوط ) الكبيرة التي تجوب النيل حتى  
دمياط .

وموقع الجزيرة الجغرافي له أهميته وخطره .. فهي تجاور  
خمس قرى وان فصلها عنها النيل .. وباستطاعتها - بواسطة  
أسطولها - ان تقاتل ثلاث قرى في يوم واحد .. ففي امكانها ان  
تنقل جيشها الى الشاطئ الشرقى في الصباح .. ثم تنقله الى  
الشاطئ الشمالى عند الظهر .. وباستطاعتها أيضا ان تنقله الى  
الشاطئ الغربى قبل حلول المساء ! .

بفضل موقعها الجغرافي الخطير .. وبفضل أسطولها الضخم  
تمكنت من التحكم في الزمان والمكان في حروبها .. واستطاعت ان  
تحتل ثلاث جزر صغيرة - ظهرت في النيل من تأثير الفيضان  
- وان تبسط عليها نفوذها .. ومن ثم راحت تنظر اليها نظرتها  
الى مستعمراتها الواسعة فيما وراء البحار !!



عاد الرجل ومنعه عامل البوقيه يحمل الشاى .. سألنى وهو



يحتسى الشاي فى تلذذ :

— تزوجت ؟

— ليس بعد

قال وهو يبتسم :

— خاطب ؟

— تقريبا .. شبه خطبة

فرد ابهامه وأشار الى اتجاه القطار ثم مد سبابته وأشار  
بها فى الاتجاه المضاد وقال :

— هنا .. أو هنا ؟

ضحكت وأنا أشير ناحية الشمال

— هنا !

رفع حاجبيه دهشة .. ثم خفضهما وغمز بعينه وقال :

— تعجبني !

وتذكرت ( نادية ) .. كانت قلقة وهى تودعنى على محطة  
سيدى جابر .. فارقتها ابتسامتها واكتسى وجهها الجميل  
بسحابة من الحزن .. كانت تعتقد أن أبى — ذلك الرجل الجبار  
فى نظرها — لن يوافق على زواجى من فتاة عصرية مثلها .. فمئذ  
أن رآته أثناء زيارته لى بالاسكندرية وهى لا تخفى قلقها .. رآته  
يخاطبنى بصيغة عسكرية أمرة .. ورأتنى انفذ له كل ما يأمر به  
.. فانتابها القلق والخوف .

سألنى الرجل وهو يستعد للنوم :

— طالب ؟

— لا .. انهيت دراستى منذ عدة شهور

— اشتغلت ؟

— نعم .. والحمد لله

قال وهو يضع البالطو تحت رأسه ويلف طرفه على وجهه :



- اذن لم يبق الا الزواج .. عندكم يتزوجون فى الخامسة عشرة .. تأخرت انت !!

مالبت الرجل ان استغرق فى النوم .. وحاولت ان اقلده لكننى فشلت .. وسرحت بأفكارى مع نادية .. قالت لى قبل أن يتحرك القطار بقليل :

- انا خائفة

- من ماذا ؟

- لست ادرى !

قلت لها وأنا أبتسم :

- لم لا تقولين انك خائفة من أبى ؟  
التفتت ناحيتى بسرعة .. وصمتت قليلا ثم قالت :

- اتريد الحق ؟

- وليس ابن عمه !

- أنا أحب أباك .. وأخافه !

وصفر القطار .. فامسكت بيدها وقلت :

- اسمعى

- نعم

- لن أعود من عنده الا وأنا أحمل موافقته على عرض متموغ وقد بصم عليه بالعشرة !

ابتسمت .. وابتسم قلبى .. وتحرك القطار

\* \* \*



## الفصل الثاني

قضيت الليلة وأنا أقلب وجوه الفكر فيما عسى أن يكون  
الأمر الذي جعل أبى يرسل الى برقيته ويطلب منى المحضور  
فى لهجة حاسمة ؟

ومع اننى خمنت عشرات التخمينات الا أننى لم أستطع أن  
اقطع بأحدها .. واشرق على الصباح ولم يغمض لى جفن ..  
وقبيل محطة الاقصر بقليل غمزت الرجل فقام من نومه مدعورا  
وتسائل :

- وصلنا ؟

- المحطة القادمة

وهرول ليغسل وجهه ثم عاد بعد قليل ليتناول حقيبته  
ويودعنى :

- تفضل معنا !

- ألف شكر .

وبعد نزوله بربع ساعات دخل القطار حدود أسوان  
الشمالية وامتلات المقاعد بذرات التراب .. فقد ضاقت رقعة  
الأرض المزروعة بعد أن زحفت عليها الصحراء .. وبعد أن توغل  
فيها بحوالى ساعة ونصف الساعة وقف بى على محطة ( دراو )  
لاجد أبى فى انتظارى على رصيف المحطة بعمامته الكبيرة وزعبوطه  
الواسع وقد اسدل عباءته وراء ظهره .. وكان بصحبته بعض  
أفراد قبيلتنا .. فسلموا على بحرارة ولعبت الاحضان دورا كبيرا  
فى الاستقبال .. وسألت أبى فى لهفة :



— خير ؟

فرد على فى اقتضاب :

— خير !

ثم تمت بصوت خفيض بما ينبىء بأن الامر لا ينبغى التحدث فيه هكذا على قارعة الطريق .. وأشار بيده وكأنه يقول « ستعرف فيما بعد »

وسرنا فى الطريق الزراعى الطويل الذى يشق حقول القصب فى اتجاه النيل يتقدمنا أبى بقامته الطويلة ومنكبیه العريضين والهواء يتلاعب بأطراف عباءته فتبدو كالأجنحة .. وبعد مسيرة نصف ساعة تقريبا ظهر النيل بعظمته وجبروته .. النيل هنا يختلف عنه فى أى مكان آخر .. هنا يبدو شابا فتيا قد انحدر توا من ( الشلالات ) وما زال لدواماته وتياراته صخب وضجيج .. فى الضفة المقابلة ظهرت جزيرتنا بنخيلها وأشجارها وكأنها الرايات قد رفعت على سوارى الخيل ! .. وعلى عرض النيل وطوله فى مواجهة الجزيرة انتشرت ( قطع الأسطول ) غادية رائحة بين الشاطئين فى خفة ونشاط .

وبمجرد أن نزلنا فى المركب التى ستعبر بنا النيل هرع الينا الحاج أحمد ( المعروف ) أو — رئيس المعادى — ليسلم علينا فناولته ورقة من فئة الجنيه .

ومع أن الاجرة للفرد هى قرش صباغ واحد الا ان الذى يحضر من السفر لابد من أن يدفع للحاج ( حلاوة السلامة ) .. وحلاوة السلامة هذه تتفاوت من شخص الى آخر فتبدأ من ربع الجنيه وتصل فى بعض الأحيان الى الخمسة جنيهات ! .. لكن الحاج أحمد لا يلح .. كل ما يدفع اليه ( بركة ) .

\*\*\*

دارت بنا المركب حول شاطئين من شواطئ الجزيرة .. اتجهت شمالا فى أول الامر ثم استدارت مع النيل لتتجه الى



الغرب .. ومررنا على جزيرة ( عيسى ) إحدى الجزر الثلاث الصغيرة التي استولت عليها جزيرتنا في سنوات ( الفتح ! ) .. وأمام شواطئها وقفت عدة مراكب كبيرة فبدأ منظرها وكأنها بعض قطع الاسطول تقف امام احدى قواعد البحرية الهامة ! ورست بنا المركب قبالة ( نجعنا ) في نصف الجزيرة الغربي .. وظهر نجعنا ببيوته السمرء ذات الطابق الواحد .. وفي وسطه تماما ظهرت ( الخيمة ) - التي تعتبر ملكا للقبيلة كلها - بأعمدتها الحمراء الجميلة وسقيفتها العالية .. وعندما وصلت الى الساحة الكبيرة التي تقع امام الخيمة رحت إطلع الى ماحولها من جديد .. هذه هي حجرة ( القهوة ) تقوم في الطرف الجنوبي للساحة .. وبجوارها مربوط ( الركائب ) وكأنه يستعد لطايا الضيوف من أبناء القبائل الاخرى .. وهذه هي شجرة ( اللبخ ) ذات الظل الغزير تتوسط الساحة وقد امتدت فروعها في كل اتجاه وكأنها أذرع ممدودة ترحب بي .. أوحشتني والله خيمتنا التي لا أراها الا مرة واحدة في السنة ولأيام معدودات .. خيمتنا الحبيبة .. رمز قبيلتنا .. التي تشهد افراح القبيلة واحزانها وتعقد فيها مجالس الصلح ويحتفل فيها بالمواسم والاعياد .. دخلتها وكأنني أدخل بيتي !



قضيت في الخيمة حوالي أربع ساعات لا أفعل شيئا غير الوقوف والجلوس بمعدل مرتين في الدقيقة .. ما ان انتهى من السلام على أحد افراد قبيلتنا حتى يظهر آخر عند الباب الرئيسي للخيمة .. فأقف من جديد وأنتظره حتى يقطع المسافة بين الباب والسقيفة .. ثم يقطع الطريقة الموصلة الى السقيفة حتى اذا اقترب مني اتقدم منه خطوتين تأدبا فيأخذني أو أخذه بالأحضان .. ثم يشد على يدي في حرارة :  
- بركة بالعافية ؟



— الله يبارك فيك

— اهلا ود العم

الجميع ينادوننى بابن العم أو ابن الأخ .. وما ان ظهر عم  
عبد الله — جارنا وظريف قبيلتنا — بقامته النحيلة وسنواته  
الستين حتى صاح وهو يفرد ذراعيه في مرح :

— شهر مبارك .. هل هلاك

وبعد القبلات والاحضان تطلع الى فى اعجاب وقال وما زالت  
يده ممسكة بيدي :

— كبرت والله يا ابن الكلب !

شعرت بسعادة لامثيل لها بين قومي .. عواطفهم الصادقة  
لا يتطرق اليها الشك .. ان سلم عليك احدهم في حرارة ..  
فان هذه الحرارة ترجمة صادقة لعواطفه .. جزيرتى هى المدرسة  
البسيطة التى أتعلم فيها الصدق مع نفسى وهى بخلاف مدرسة  
المدينة ذات الحرارة المفتعلة التى نستقبل بها من نرجو خيرهم  
أو نخشى شرهم .

قضيت حوالى الأبع ساعات فى الخيمة استمتع بحرارة  
القلوب البسيطة الصافية ..

وصوت عم عبد الله يرن فى اذنى :

— آنست فى بلدك يا سيد عمك

— الله يآنسك برحمة سيدك !

بفسدها ذهبت الى البيت كى اسلم على والدتى واختى  
الوحيدة ( نجلة ) .. ولم أكن قد سلمت عليهما بعد .

استقبلتنى امى — كالعادة — بالاحضان والدموع .. ابنها  
الوحيد الغالى الذى كبر وقسا قلبه وأحب بلاد الغربى التى  
تختلط فيها النساء بالرجال — على حد تعبيرها .

انا لا أرى أمى — منذ طفولتى — الا فى الاجازات الدراسية  
.. حتى بعد ان حصلت على وظيفة .. كانت بالاسكندرية .

وما ان فرغت من السلام على أمي وأختي حتى دخل علينا  
أبي .. وسألته مستفسرا عما دعاه الى ارسال برقيته .  
فقال لي :

— لتتزوج !

قلت في دهشة وسرعة من لدغته عقرب :

— اتزوج ؟

قال في بساطة .. وملامح وجهه التي تقبل التشكيل لعكس  
الطيبة والهدوء بنفس القوة التي تعكس بها التعبيرات الصارمة :  
— نعم .. هل في الامر غرابة ؟

قلت وانا اشفق من الخوض في مناقشة سأكون فيها  
خاسرا حتما

— لا غرابة .. لكن .. اقصد .. احب ان اقول ان الامر  
يحتاج الى تفكير .

قال وكأنه يخاطب طفلا لم يعرف بعد معنى للحياة وابتسامته  
الأبوية تطل على في اشفاق :

— الزواج يا ولد يحتاج الى تفكير ؟!

قلت وأنا أدعو الله أن يمر الموقف بسلام :

— اقصد الاستعداد

ثم استطردت وأنا أزدرد ريقى :

— الاستعداد للزواج .. فهذا ليس بالشيء السهل

فلوح بيده في استهانة وقال :

— لا تحمل هما .. انا مستعد !

شعرت بسرور وخوف معا .. وتخيلت نادية تجلس

بجوارى في ثياب العرس وتهمس في اذني — كماداتها — دون ان  
يلمحها أحد « دمك ثقيل » .. وقلت لأبي :

— أنا عارف .. ربنا يبارك فيك .. لكن اقصد الاستعداد

الذي يدخل ضمنه اختيار العروس المناسبة .



قال وكأنه يزف الى بشرى :

— العروسة موجودة !

جمدتنى هذه الكلمة .. صعقتنى .. مرت ثوان لم اشعر فيها لا بالزمان ولا بالمكان ولا بما اذا كنت أحلم أم ان هذا الذى أسمعه حقيقة واقعة .. لست أدري كم مر من الوقت قبل ان أسمع صوت أبى وكأنه يأتينى من بئر عميق :

— فيم تفكر ؟ قلت العروسة موجودة .. هل عندك حجة جديدة؟

قلت وقد خيل الى ان صوتى قد تحول الى ما يشبه الحشرة :  
— من هى ؟

قال فى ثقة من يقدم الى مفاجأة سارة :

— بنت عمك .. سلمى

انتابنى الغضب .. حاولت أن أكتمه كيلا يلون نبرات صوتى .. فقلت :

— لن أتزوج

قال وقد بوغت بأن أمرا أصدره على وشك أن يخالف .. فاحتد صوته كمن يدافع عن مبدأ :

— لن تتزوج ؟ .. وهل نحن على هواك ؟!

ولم أرد .. لذت بالصمت وان كان باطنى يغلى .. كنت اعرف ان الاستمرار فى المناقشة سيزيد هياجه .. فاستطرد يقول :

— لم يبق الا هذا .. اقول له تزوج يقول لى لا !

ثم صمت برهة .. وقال لى وقد رق صوته فى سرعة عجيبة:

— الامر خطير .. اخطر مما تظن .. أسأل امك عن أهمية

هذا الزواج .. وبعدها أنا واثق انك ستتسارع الى الزواج من بنت عمك .

قال هذا .. ثم تركنا وخرج

\*\*\*

## الفصل الثالث

جلست على سرير الحبال ( العنجريه ) القريب من الباب ..  
واشعلت لنفسى سيجارة .. وتقدمت منى أمى ووجهها الذى يحمل  
الكثير من آثار جمال قديم ، يبدو تعسا لتعاستى .. جلست بجوارى  
ووضعت يدها على كتفى برفق وقالت فى حنان .

— حمدا لله على سلامتك .

وجاهدت أن يكون صوتى طبيعيا وأنا أقول :

— الله يسلمك .

كانت والدتى تقف فى صفى فى كل ما يدور من خلاف بينى  
وبين الوالد .. الا انها لم تكن تستطيع اعلان رأيها صراحة أمام  
الوالد .. لذا فقد توقعت بمجرد جلوسها بجوارى أن تبدأ — كالعادة —  
فى التخفيف عني وتهوين الامر على .. مع تأييد موقفى فى السر ..  
ولم أكن لحظتها مستعدة لتقبل مواساة أو تخفيف .. كنت قد  
عقدت العزم بينى وبين نفسى على رفض هذا الزواج ولتنطبق السماء  
على الارض .. لكننى فوجئت بأمرى تقول :

— أبوك عنده حق !

فالتفت اليها بسرعة وقلت فى استغراب :

— ماذا تقولين ؟

فرمشت بعينيها كمن تتفادى نظراتى التى يبدو انها كانت  
حادة وقالت مؤكدة :



— عنده حق !  
قلت فى حدة :  
— أى حق ؟  
قالت فى ثقة :  
— سأحكى لك .  
قلت فى نفاد صبر  
— احكى !

وبدأت أمى تتكلم .. قصت على ما قف له شعر رأسى وطاش  
له صوابى .. فهمت منها أن ( سلمى ) زفت الى شاب يدعى عباس من  
قبيلة ( البراطيم ) — القبيلة التى ينتمى اليها العمدة — وكان الشاب  
من ذلك النوع الأبله ( المدروش ) .. وكان مركز أسرته شفيعا له  
عند عمى — والد سلمى — فى الزواج منها .. وفى ليلة الدخلة خرج  
الشاب يصيح فى لوثة ليقول انه وجدها غير عذراء .. وجزعت الفتاة  
فهربت الى بيت عمها ( بيتنا ) لتحتوى به من غضبة الاهل — ولم  
تغادره الا أمس — ولم يقتنع أحد من الاسرة أن ابنتهم غير عذراء ..  
الا أن اهل القرية — طبعاً — لم يروا هذا الرأى ! .. وبعد دراسة  
الموقف من جميع وجوهه اتفقت الأسرة على أن تبرق الى الأحضر  
فورا وأمحو العار الذى قد يلحق بالأسرة وذلك بالزواج من سلمى .  
وفهمت من أمى أيضا ان عدة شبان من قبيلتنا أبدوا استعدادهم  
للزواج من سلمى .. لكن والدى — وليس والدها — رفض رفضا  
باتا .. وأبلغهم — بصفته عميد الاسرة — انه لا يسمح لأحد أن  
يتفضل على الأسرة بمحو عارها .. لأن العار أولى به أهله .. ولم  
يكن ( أهله ) غيرى أنا !

استمعت الى القصة من أمى بلب شارد وعقل مذهول .. هذا  
آخر ما كنت انتظره أو أتوقعه .. اذن فالمسألة أخطر بكثير مما كنت

أظن .. ان أسرتى يتهددها العار لا سيما فى قرية ترقد فى الصعيد  
الأقصى كقريتى .. لن تقوم لمثل هذه الأسرة قائمة .. لن يهنا لها  
عيش .. لا يستطيع أحد من رجالها أن يرفع رأسه أو يخاطب أحدا  
أو يغشى مجلسا .. ويل لرجال الأسرة من سفهاء الأسر والقبائل  
الأخرى .. وويل ثم ويل لنساء الأسرة من نساء القرية .. فالنساء  
أكثر تفرغا للخوض فى مثل هذه الأمور من الرجال .. لا .. لا بد  
من التضحية لانقاذ الأسرة .. هى أسرتى .. أعطتنى الفرصة للتعليم  
والرقى .. حقا ان نشأتى بالاسكندرية واختلاطى بأوساط المثقفين  
قد بدلا الكثير من قيمى وأفكارى .. لكن هذا يتضاءل اذا قورن  
بعاطفتى تجاه الأسرة .. وما لها سلمى ؟ .. اليست جميلة ؟ ..  
انها جميلة جدا .. خميرية اللون .. مستقيمة الانف .. حلوة  
العينين .. فى شفتيها رقة ... وفى صوتها رخامة .. جسمها الذى  
يميل الى الطول ممتلئ قليلا .. اذا ابتسمت ظهرت لها غمازتان تخلصان  
اللب وتذهبان بالعقل .. لكن عقلى أنا - قاتله الله - لا يديره الجمال  
وحده .. لا بد من أشياء أخرى تساعد الجمال حتى يستطيع أن  
يغزو قلبى .. أشياء يقتنع بها عقلى فيرسل اشارة الى قلبى حتى  
يبدأ فى الخفقان ! .. سلمى لا تصلح لى .. فكيف أتزوج منها ..  
كيف أتزوج ممن لم تفتح فى حياتها كتابا أو مجلة أو حتى تفرق بين  
الألف والنبوت ؟ .. ثم كيف أصبح بها معى الى الاسكندرية وأتبادل  
واياها زيارة الاصدقاء والزملاء وزوجاتهم وهى التى لم تخرج من  
القرية فى حياتها الا الى الشاطئ المقابل لجزيرتنا .. مرة كل عام  
فى أيام مولد الشيخ ( عامر ) وبصحبة رجال الأسرة ونسائها ؟ ..  
كيف أسلم من لسان صديقى السكندرى ( محمود الشبراوى ) الذى  
يسخر من طوب الارض .. اذا رآها تجرر ملاءتها المصنوعة من  
صوف النعاج والتى تسحب وراءها التراب على بعد متر منها ..  
فتبدو وكأنها « أسد يجزر حية رقطاء » على رأى الشاعر ؟



شتان يا سلمى ما بينك وبين نادية .. نادية التي تناقش  
معى الكتاب الذى تقرأه .. وتقول رأيها فى الفيلم الذى تشاهده ..  
وتتذوق الموسيقى الشرقية والغربية .. وتطرب ايما طرب لبيت جميل  
من الشعر .. وأهم من هذا هى الوحيدة التى تستطيع أن تعيد الى  
الابتسامة فى أخرج الاوقات التى ينتابنى فيها الحزن .. أين أنت  
يا نادية ؟ .. لشد ما احتاج اليك الآن وأنا أشد الناس تعاسة  
وحزنا .. انت فنانة يا نادية .. عاشقة الفن .. هل فى بنات حواء  
مثلك ؟ .. متى القاك ؟ لقد اشتقت اليك ولما يمض على فراقى لك الا  
يوم وبعض يوم .. أين تلك الابتسامة الودود ؟ .. سأراها قريباً  
يا أعز الناس .. سلمى ؟ .. سلمى من ؟ .. أنا أتزوج من سلمى ؟  
أنا ؟ .. تلك التى أراهن انها لم تسمع بشيء اسمه الموسيقى  
فى حياتها ؟ .. لتذهب هى وأبوها وأسرتها الى الجحيم ..  
وليركبهم العار وليدفنوا أحياء .. ألم يقولوا ان كثيرين من أبناء  
القبيلة تقدموا للزواج منها وفى هذا محو لعارهم .. لم لا يزوجونها  
من أحدهم .. فهم أقرب الى عقليتها منى .. هى ستشقى معى  
بقدر ما سأشقى معها .. أجل .. هذا هو الحل السليم ..  
لتزوج سلمى من أحد أبناء القبيلة .. ولأترك انا فى حالى أعيش  
حياتى كما احب .. فلن أعيش الا مرة واحدة .

قطعت على أمى أفكارى بقولها :

— أظنك اقتنعت ؟

لوحت بيدي وقلت فى ضيق :

— اقتنعت ؟ .. من قال لك ؟ .. لن أتزوج لا من سلمى

ولا من غيرها .

قالت أمى فى دهشة :

— لن تتزوج ؟ .. كيف ؟

قلت وأنا انفج :  
- أنا حر !

وصممت أُمى . . ومع أنها كانت تنزل دائما عند رأيى . .  
فى الحالات التى تعرف أنها تسبب لى ضيقا . . الا انها لم ترتج  
لاجابتي . . أسندت رأسها على راحتها وراحت تنظر الى ( برش )  
صغيرة - تستخدم للصلاة - علقت على الحائط . . وهنا تقدمت منا  
أختى ( نجلة ) التى كانت قد أخلت لنا الجو أنا وأُمى وتشاغلنا  
باعداد الشاى . . قالت تخاطب أُمى وقد سمعت طرف الحديث :

- هو عرف ؟

ردت أُمى فى لهجة من أصيب بخيبة أمل :

- عرف .

فتقدمت منى نجلة وقالت فى انزعاج :

- أليس من العيب أن تقول مثل هذا الكلام يا حامى الديار ؟  
ديار ! . . أى ديار هذه التى أحميها خرب الله دياركم ؟ . .  
هل حماية الديار عندكم ان أرغم على الزواج من واحدة عندها أكثر  
من فرصة للزواج ؟ . . وان أربط نفسى - بلا مبرر - بانسانه  
لا تربطنى بها أية رابطة عقلية أو عاطفية غير رابطة النسب ؟ . .  
ثم من ادرانى ان سلمى هذه تود الزواج بى ؟ . . حقا انها لا تملك  
حق الرفض أو القبول ككل فتيات القرية . . لكن ألا يحتمل أنها  
تضمر لى كرها ؟

قلت لأختى :

- أنا أتزوج عندما أريد ذلك . . ومن تصلح لى .

قالت فى لهجة لم تغل من فخر :

- وسلمى ما لها ؟ . . ألا تصلح لك ؟ . . سترث من أبيها

سبعة أفدنة !



قلت فى ثورة :

- لتذهب هى وأفدنتها الى ستين داهية !

فجابهت ثورتى بثورة مماثلة مستغلة فى ذلك سلطة السنوات

العشر التى تكبرنى بها وقالت :

- لا (تفترى) على نعمة ربنا • لو أدخرت طول عمرك لما جمعت

ثمن سبعة قراريط !

فتدخلت أمى وقالت فى اعياء :

- دعونا من حديث القراريط الآن

فتناولت نجلة طرف الخيط وقالت لى :

- حقا •• المسألة أهم من الأفدنة والقراريط •• المسألة تتعلق

بشرف الاسرة •• حياتنا تتوقف على زواجك من سلمى •• والا

فالعار الذى ما بعده عار !

قلت فى ضجر :

- لا أرى عارا على الأسرة •• زوجوها من أى أحد •• ألم يتقدم

للزواج منها كثيرون ؟

فضربت نجلة صدرها بيدها •• وشهقت وكأنها سئمت بأن

الفيضان قد حطم سد القرية وزحف على البيوت فقوض أركانها

وقالت :

- ماذا قلت ؟ •• بم نطق ؟ •• ألا تستحى من نفسك ؟ كيف

تواجه الناس وبنت عمك قد ( ستر ) عليها غيرك •• بأى وجه

ستلقاهم •• هه ؟ •• لماذا لم ترد ؟

وهنا أحدثت ضجة الباب صوتا •• وسرعان ما فتح الباب ودخل

أبى •• وصمتت نجلة صمتا تاما •• حبست انفعاها الشديد

بمجرد رؤيتها له •

وتقدم منا أبى •• فوقفت له •• ووقفت أمى •• وكانت نحلة

واقفه قبالتى فأخلت له الطريق ووقفت بجانب أمى .. ومر أمامنا  
وقال دون أن ينظر إلينا أو يتوقف عن سيره مما يدل على أنه سمع  
بعض كلمات نجلة :

— سلام عليكم

فرددنا فى نفس واحد :

— وعليكم السلام

فواصل سيره ناحية حجرته وقال مخاطبا أمى :

— أظنه لم يوافق ؟

فقالت أمى وصوتها يحمل نبرات رسول السلام

— ربنا يهديه !

فرد عليها وهو يدفع باب حجرته فى لهجة لم تخل من تهديد

— الصباح .. رباح ..

\*\*\*

أويت الى فراشى وأنا فى غاية التعب والارهاق .. ومع اننى لم  
أذق للنوم طعما فى الليلة الماضية — ليلة القطار — الا اننى فشلت  
فى أن أجذب النعاس الى عينى .. كانت صورة اللقاء العاصف الذى  
ينتظرنى مع أبى فى الصباح .. كافية لطرد كل محاولة للنوم ..  
بل اننى فقدت حتى مجرد التفكير السليم .. ومرت صور حياتى  
بمخيلتى مرورا سريعا ولكن فى وضوح .. أنتهى الى أسرة لا تفهمنى  
ولا أهضمها .. أشعر كأننى أعيش بشخصيتين مختلفتين ..  
شخصية يعرفها زملائى فى العمل وأصدقائى ومعارفى بالاسكندرية  
حيث نشأت وتعلمت .. وشخصية أخرى يعرفها أبى وأهلى وأبناء  
قبيلتى ولا تمت للشخصية الأولى بصلة .. فقد نشأت بالاسكندرية  
مصادفة .. نشبت معركة حامية بين قبيلتنا وبين قبيلة أخرى سقط  
فيها الكثير من الجرحى .. اتهم أحد الجرحى أبى بأنه هو الذى جرحه





بنبوته أثناء المعركة .. وتوعده بأنه سيحرق قلبه .. وفسر أبى كلمة (قلبه) على انه يقصدنى أنا .. لا سيما وأن الرجل كان سييء الخلق معروفًا بالغدر .. ولما كان أبى لم ينجب من الإبناء الذكور غيرى .. فقد انزعج انزعاجًا شديدًا .. ودفعه خوفه على أن يبعث بنى إلى قريب لنا يقيم بالاسكندرية بصفة دائمة .. أرسلنى عنده كى أمكث بعض الوقت إلى أن ينجلي الموقف فى القرية .. وكنت فى التاسعة من عمرى .. وكان لقربينا هذا ابن فى مثل عمرى يذهب إلى المدرسة .. فألحقنى بنفس مدرسة ابنه .. وشغفت بالحياة الجديدة ورجوت قربينا أن يتوسط لدى أبى كى أقيم فى الاسكندرية بصفة دائمة وأن أواصل الدراسة .. وقبل أبى على مضض بعد جدال طويل .. لأن التعليم - فى رأيه - يفسد الأولاد ويجعلهم يتعالمون على ذويهم .. ولما قطعت شوطًا فى التعليم .. رحت أجاهد طوال فترة دراستى فى أن أثبت لأبى عكس نظرتة إلى التعليم (وفساده ! ) .. فكنت فى الاجازات الدراسية التى أحضر فيها إلى البلد .. اتجنب كل ما يثير مخاوفه لكيلا يلحظ أى تغيير فى سلوكى .. لا سيما وأنه هددنى مرة بمنعنى من مواصلة الدراسة حينما أخطأت وقلت له ان الأرض كروية وانها تسبح فى الفضاء مع مجموعة من الكواكب .. اذ انها من رأيه يحملها ثور كبير على قرنه .. ولو كانت معلقة - كما أقول - لوقعت ! .. ولم يهدأ له بال ويطمئن على سلامة المناهج التى وضعت لتعليمنا الا بعد أن اعترفت له بأننى كنت أمزح .. وانها فعلا يحملها ثور قوى ينتمى إلى قبيلة الثيران الاسبانية .. وكان اذا رآنى اخلع البنطلون وارتدى الزعبوط الواسع وأضع على رأسى العمامة الكبيرة التى تزيد على الثلاثة أمتار .. فوق الطاقة الملونة .. واحمل الشمروخ الشوم الذى يحمله شبان القبيلة الأقوياء .. يسر لذلك كثيرا .. أكثر من

سروره بنجاحى فى نهاية العام !

ومع الأيام أصبحت وكأننى شخصيتان مختلفتان .. شخص لا يقدم على أمر بغير اقتناع .. يعشق الأدب والفن .. يحترم رأى غيره .. يعتقد أنه يعيش فى القرن العشرين طالما كان بين أقرانه فى الاسكندرية .. وشخص آخر يتصرف فى حدود معينة رسمتها له تقاليد وضعت منذ عدة قرون .. ويؤمن - ضمن ما يؤمن بكرامات مجذوب القرية ولى الله ( فراج ! ) .. طالما كان موجودا بالقرية .

فكيف السبيل الآن الى الغاء الشخصية التى يعرفها الأهل وفرض الشخصية الحقيقية ؟ .. يا له من امتحان رهيب هذا الذى أنا مقبل عليه .

\* \* \*



## الفصل الرابع

استيقظت في الصباح مذعورا على أصوات نسائية تصرخ وتولول .. فهرولت الى خارج الحجرة فرأيت أمي تقف على عتبة الدار وصراخها المتقطع يصل الى عنان السماء .. فسألتها في ذهول

— مالك ؟ .. ماذا حدث ؟

قالت وهي تتردد بين الاجابة على سؤالى أو مواصلة الصراخ :  
— لا أدري .. سمعت الصراخ فصرخت .. يبدو أنها

( شكله ) ! !

فسارعت بالخروج .. وأنا بملاييس النوم — الى الدرب الصغير الذى يفتح عليه باب بيتنا .. وواصلت السير نحو مصدر الصوت الى نهاية الدرب حيث الساحة الكبيرة التى تتوسط النجع .. فرأيت كل من فى النجع يهرول مذعورا .. النساء تولول .. والرجال تجرى .. وعرفت بالبداهة أن معركة مع قبيلة أخرى على وشك الوقوع .. وأن هذا الصراخ من النساء ما هو الا صفارات الانذار التى يهرول بعدها الرجال لاحضار النبائيت ! .. وعرفت أيضا من طريقة الهرولة أن المعركة القادمة مع قبيلتنا معركة دفاعية وليست هجومية .. فلو كانت هجومية لكان لها استعداد خاص يسبق الصراخ بأيام أو على الأقل بساعات .. ولكان كل رجل وشاب فى القبيلة على علم بها .. ولكن هذه المرة يبدو الموقف واضحا بأن النجع مهدد بغزو خارجى ! ..

ورحت أسأل كل من أصادفه يهرول بنبوته :

- مع من ؟ .. وما السبب ؟

فكانت الاجابات مبتورة ومتعجلة :

- مع البراطيم !

- جاد هو السبب !

وتكررت نفس الاجابات من كل من سألتهم .. ورأيت عم عبد الله قادما نحوى يهرول فى اتجاه بيته الملاصق لبيتنا .. كان يهرول فى خفة ونشاط على الرغم من كبر سنه .. فسألته :

- ماذا حدث يا شيخ عبد الله ؟

فلم يرد على .. استمر فى هروله الى أن دخل البيت .. وما لبث أن عاد بعد قليل يحمل نبوته الأحمر وقد خلع زعبوطه وبقي بالقميص الأبيض فوق السروال الطويل ورأسه عار الا من الطاقية ذات اللونين الاصفر والاخضر .. سألته مرة أخرى :

- ما سبب هذه ( الشكله ) ؟ .. ومع من ؟

فألقي على نظرة متعجبة ومضى فى طريقه دون أن يرد .. فاضطرت أن أمسك طرف نبوته لأوقفه .. فقال لى وهو يحاول أن يخلص نبوته اللامع الحمرة لكثرة طلائه بالحناء من يدى :

- البراطيم .. أولاد الكلب !

- ما لهم ؟

سمعنا انهم فى طريقهم الى نجعنا .. لكن على من ؟ .. ملعون أبوهم وأبو عمدتهم !

- لكن لماذا ؟ .. ما السبب ؟

قال وعنقه النحيل ينتفخ مع كلماته السريعة المنفعلة :

- هل تعتقد انهم يغلبوننا ؟ .. لأنهم أكثر منا عددا يظنون انهم يغلبوننا ؟ .. هذا بعدهم .. أولاد الكلب !

- أنا أعرف انهم أولاد كلب .. لكن ما السبب ؟ !

- السبب هو جاد .. تعارك مع عباس فى الحقل ووصل

الخبر الى البراطيم فقرروا تأديب جاد وقبيلة جاد .. لكن براطيم  
من ؟ .. سنريهم شغلهم .. سنعلمهم كيف يكون القتال .. على  
الطلاق سنؤدبهم !

قال هذا واشتبك معي في محاولة مستميتة لتخليص نبوته  
من يدي .. فقلت له :

- لو حذفتم الشتيمة من كلامك لأفهمتنى بما حدث في نصف  
هذه المدة .. يا رجل تكلم بلا شتيمة ..

فتلفت حوله يتطلع الى الذين يهرولون بنبايتهم وكأنه  
يحسداهم على حريرتهم .. وقال وقد تصيب منه العرق فلمعت  
بشرته السوداء :

- منذ عدة أيام حدثت مناقشة حادة بين عباس - زوج - سلمى  
السابق - وبين جاد .. فقال عباس له : « لو كنتم رجالا لقتلتم  
بنتكم العاهرة .. »

وضرب عم عبد الله صدره بيده وزمجر في غضب :

- بنتنا نحن عاهرة ؟ .. الأهل ابن الحمار ؟ ..

ثم خفض صوته قليلا وقال :

- طبعا جاد لم يرد عليه .. خشى ان هو تشاكل معه أن  
يسأل الناس - فيما بعد - عن سبب (الشكلة) فيعرفون أن فيها مثل  
هذا الكلام الذى يجلب العار .. وطبعا أنت عارف أن أرض جاد  
تقع بجوار أرض عباس .. فحدثت مشادة بينهما - اليوم - على  
سقاية الأرض .. وتماسكا بالأيدي واستطاع جاد - سيد عمه - أن  
يوقع عباسا فى الطين ويغرسه فيه وينهال عليه لكما وصفنا ..  
ولولا أن سارع جيرانهم لانقاذه لقضى عليه .. جاد سبع والله ..  
على الطلاق سبع .. براطيم من أولاد الكلب ؟ .. اترك نبوتى ..  
اتركه .. هل تريداهم أن يدخلوا علينا النجع ؟ .. اترك النبوت ..  
ملعون أبو البراطيم وأبو العمدة ..



واجتاحنى غضب وأنا أترك عم عبد الله وأتجه ناحية البيت  
لاحضار نبوتى .. ووجدتنى أردد بينى وبين نفسى « براطيم من ؟  
.. » .. لن يستطيع أحد أن يقتحم علينا نجعنا مهما بلغت قوته ..  
حتى قبيلة البراطيم نفسها التى تفوقنا عددا وعدة والتى تملك الثروة  
والقوة لن تستطيع أن تقتحم علينا نجعنا وفيما عرق ينبض ! ..  
اننا نغضب ونحمل السلاح اذا ما تعرض الوطن الأكبر للعدوان  
الخارجى .. وما الفارق هنا بين الوطن الأكبر وبين ( النجع ) ..  
وطننا الأصغر ؟ .. ثم ان المسألة تخص سلمى ! .. قبيلتى كلها  
تقف الآن للقتال ربما الى حد الموت بسبب كلمة تمس ابنة عمى ! ..  
أهذا هو سر غضبى ؟ .. هل معنى هذا اننى أصبحت مسثولا عن  
سلمى ؟ .. لا .. سلمى تستطيع أن تتزوج وتعيش فى هدوء ..  
ما سر غضبى اذن ؟ .. الذى اغضببنى حقا هو غرور البراطيم ..  
فالبراطيم قبيلة مغرورة .. يخيل اليها أن العراق مع فرد منها  
- حتى ولو كان مخطئا - أمر خطير يجب ألا يمر بسهولة .. لا مانع  
عندها من أن تسيل الدماء ما دامت هى الغالبة فى الحاليتين .. فى  
حالة القتال لتعدادها الكبير .. وفى حالة ما اذا رفع الأمر للقضاء  
لثروتها الواسعة .. كيف يمس أحد أفراد قبيلة البراطيم العظيمة  
التي منها العمدة الذى يتربع على عرش الجزيرة وكأنه قيصر  
الرومان ؟ .. لكن براطيم من ؟ !

عدت الى البيت فغيرت ملابسى على عجل .. وانطلقت الى  
الكوبرى الذى يمر فوق الترعة الكبيرة التى تفصل نجعنا عن  
المزارع الشاسعة التى يقوم فى آخرها نجع البراطيم .. كان  
النبوت ينثنى فى يدى فى مرونة لمبيته الدائم فى اناء الزيت ..  
أعجبتنى مرونته .. وعرفت أن أبى كان على حق حينما فرض على  
أن اتعلم القتال بالنبوت .. والا لجرححت الآن بمجرد دخولى المعركة  
من أضعف ضعيف فى البراطيم !

فوق الكوبرى لاحظت أن قبيلتنا قد وقفت فى صفين طويلين ..  
وصف ثالث صغير فى الخلف .. فوقفت أمام ( حسب الله ) ..  
فأشار الى الصف الثالث وقال لى : « قف هنا ! » .. فامتثلت لأمره  
بلا مناقشة .

وحسب الله هذا هو المختص بتنظيم المعارك التى تخوضها  
قبيلتنا .. هو بمثابة قائدها العسكرى .. لا يتدخل فى أى شأن  
من شئوننا الأخرى الا كما يتدخل غيره .. أما اذا كانت هناك معركة  
مع القبيلة فهو وحده صاحب الشأن .. الجميع يطيعونه طاعة عمياء  
ويخضعون لأوامره بلا مناقشة .. وهو فى حوالى الأربعين من عمره  
.. طويل القامة .. متين البنيان .. جميل ملامح الوجه .. برع  
فى ( الخطط العسكرية ) فكسب الكثير من المعارك للقبيلة .. وهو  
أخطر من يقاتل بالنبوت فى قريتنا فى أوقات الحرب .. وأبرع من  
يلعب بالعصا فى أوقات السلم .

جاءت وقفتى فى الصف الثالث بجوار عم عبد الله .. أشار  
باصبعه النحيل صوب الصف الأمامى وقال :

– حسب الله جعل الصف الأمامى من الشبان الصغار ..  
وجعل الصف الثانى من الرجال الأقوياء .. لأنه لا يريد أن ينتظر  
البراطيم حتى يصلوا الى الكوبرى .  
– كيف ؟

– الصف الأول سيهجم عليهم قبل أن يصلوا الى الكوبرى  
بمسافة كبيرة .

– لكن البراطيم سيدورون حولهم .. فالمزارع واسعة وصف  
البراطيم – لا شك – طويل

– اطمئن .. هو قال لهم بعثروا نظام البراطيم فقط ..  
وبمجرد أن تشعروا انهم سيدورون حولكم اهربوا بسرعة الى ما وراء  
الصف الثانى .

ثم ضحك عم عبد الله وقال فى اعجاب :  
- فكرة جميلة والله .. ألا ترى انه اختار الصف الاول كله  
من أولادنا الشجعان .. المجانين ؟!

ثم عبس وقال فى أسى :  
- قلت لحسب الله دعنى معهم فى الصف الاول .. فقال لى  
لا .. انت كبيرت .. نحن نحتاج اليك فى الصف الثالث .. فقلت  
له سأقف فى الصف الثانى .. قال لى الصف الثالث أحسن .  
ثم ضرب الارض بنبوته وقال فى ثورة :  
- حسب الله يضحك على ؟ .. الصف الثالث موته أحسن  
من حياته !

وشعرت بالخجل .. فلم أكن أدرى ما هى مهمة الصف  
الثالث .. اذ اننى لم أشارك فى معركة من قبل .. فقلت لعم  
عبد الله :

- ما هى مهمتنا اذن ؟

قال فى سخرية :

- ليست لنا مهمة .. الصف الثانى هو الذى سيتصدى  
للبراطيم ويمنعهم من اجتياز الكوبرى بعد هروب الصف الاول ..  
مهمتنا - قال - مساعدة الصف الثانى .. أى مساعدة هذه ؟ ..  
هل نحن عيال ؟

فرغ حسب الله من التنظيم وراح يتفقد الصفوف وقد ارتسمت  
على وجهه الأسمر امارات الحزم والقوة .. ثم بدأ يخاطبنا فى  
نبرات طبيعية ولكنها حازمة :

- لا تخيفكم كثرتهم .. قبيلة (الحمدا ب) لا يزيد رجالها على  
الخمسين رجلا .. غلبوا قبيلة (ال دراو يش) التى يزيد عدد رجالها  
على المائة والخمسين رجلا .. وقفوا أمامهم مثل الحديد وشتتوهم  
فى أقل من ساعة .. وجرحوا منهم أربعة بينما هم لم يجرح منهم  
أحد .. لماذا غلبوهم ؟ .. لانهم لم يتأخروا الى الوراء خطوة واحدة ..



ولماذا يتأخر الواحد ؟ .. هل عمره سيطول اذا تأخر .. أو سيقصر  
اذا تقدم ؟ .. العمر مثل الزرع .. يحصد عندما يأتي أوانه ..  
وكل شيء ينتهى لكن الكلام يبقى .. ستنتهى هذه (الشكلة) لكنها  
ستروى فى النجسوع .. قبيلتنا والحمد لله لم تغلب أبدا ..  
البراطيم ناس يفترون على الخلق .. المفترى عليه الله .. سنغلبهم  
والله سنغلبهم !

كان حسب الله يتكلم فى حماس والجميع ينصتون له دون  
أن تتحرك فى أحدهم شعرة ! .. واشهد اننى كنت أضع طرف  
نبوتى على الارض وأتكى على الطرف الآخر .. فلما سمعت كلمات  
حسب الله انتابنى الحماس فغرت من وضعه بأن أمسكته بوضع  
الاستعداد للقتال وتحرقت شوقا لقتال البراطيم ! .. وتعجبت كثيرا  
من نفسى .. ترى .. لو ان أحدا من زملاء العمل أو أصدقاء  
الاسكندرية رآنى على هذا الوضع هل يصدق ؟ .. ولو رأتنى نادىة  
.. هل تصدق ؟ .. أجل .. نادىة تصدق ! .. نادىة فقط ! .. فهى  
أعلم الناس بحقيقة مشاعرى .. بل يخيل الى أنها تشاركنى فى  
كل أحاسيسى !

ولمحت أبى يقف بجوار حسب الله ويهمس له بكلمات بين  
الحين والحين وحسب الله يهز رأسه موافقا .. فقد كان أبى فى شبابه  
يقوم بنفس المهمة التى يقوم بها حسب الله الآن .. الا ان حسب الله  
يمتاز بالهدوء والرصانة وبخطه الحربية البارة !



كانت أعيننا معلقة ناحية الشرق حيث يقع الطريق الطرين  
الذى يشق المزارع .. والذى ستظهر منه قبيلة البراطيم .. كانت  
المزارع خالية تماما .. وفى الجانب الجنوبى للمزارع .. وقفت  
قبيلة (القاضى) القليلة العدد .. وقد نظمت صفها الصغير فى محاولة

ميثوس منها للفصل بين الفريقين اللذين ينتظر التحامهما . . . وجرت العادة أن تهرع القبائل الأخرى إلى الفصل بين الفريقين المتقاتلين بالقوة . . . وذلك بمواجهة الفريق الأقوى ومنعه من الوصول إلى خصمه . . . يحدث هذا دائما إلا في الحالات التي تكون فيها قبيلة البراطيم طرفا في المعركة . . . إذ إنها اعتادت اعتمادا على قوتها - أن تكتسح كل من يقف في طريقها . . . لذا فقد انتهت قبيلة القاضي من تنظيم صفها الضمئيل . . . واكتفت بالتفرج على جمال الطبيعة المتمثلة في المزارع الخضراء . . . وكأنها مجموعة من مراقبي الهدنة تستعد لكتابة التقارير !



من بعيد ظهر شاب يهرول ناحيتنا . . . تابعناه بعيوننا إلى أن وقف قبالة الصف الأول . . . ثم تقدم من حسب الله وقال له وهو يلهث :

- البراطيم رجعوا .

وبدأت الصفوف تفقد نظامها لأول مرة وهي تتحرك صوب الشباب . . . وسأله حسب الله في دهشة :

- رجعوا ؟ . . . لماذا ؟

- العقلاء من كبار السن ضغطوا على الشباب فارجعوهم .

ومرت فترة صمت قصيرة تبودلت فيها النظرات بين أبناء

قبيلتنا وبين حسب الله . . . وقال حسب الله للشباب متسائلا :

- والعمدة ؟

فتردد الشاب قليلا ثم قال :

- العمدة كان يريد القتال . . . لكن شيوخ البراطيم اقنعوه

ب عقد (مجلس عرب) عند قبيلة أخرى . . . وقالوا له إذا فشل مجلس

العرب افعل ما تريد !

ثم اقترب الشباب من حسب الله وأسر له ببضع كلمات  
لم نسمعها . . وأشار حسب الله لنا بالعودة الى النجع . . ففرقت  
صفوفنا الى كل اتجاه . . وقبل أن نصل النجع بقليل قال لى عم  
عبد الله وهو يعيد لف عمامته حول رأسه بعد أن كان يربطها حول  
خصره أثناء استعدادده للقتال . . قال لى :

— عرفت لك الخبر

— أى خبر ؟

قال دون أن يرد على تساؤلى :

— أتدرى من الذى أرسل هذا الولد الذى أخبرنا برجوع  
البراطيم ؟  
— لا .

— أرسله الشيخ محارب

وأنا أعرف إن الشيخ محارب هو زعيم قبيلة (الكوامل) القوية  
التي تربطها بقبيلتنا أواصر القرى . . فقلت لعم عبد الله :  
— وهل عرف الشيخ محارب (بالشكلة) حتى يرسله ؟  
فرد عم عبد الله فى سرعة :

— عرف ؟ . . وهل تظن ان العمدة رجع لانه اقتنع برأى عقلاء  
البراطيم ؟ . . العمدة لم يرجع الا بعد أن أرسل اليه الشيخ محارب  
انذارا بأنه سيقا تل معنا اذا ما اشتبكت بيننا وبينه شكلة !

قلت فى دهشة :

— وما الذى جعل الشيخ محارب يفعل هذا ؟

— لأسباب كثيرة . . منها ان قبيلتنا وقبيلة الشيخ محارب  
من أصل واحد . . ومنها ان والده جاد — الذى تسبب فى المعركة —  
من قبيلة الكوامل . . ومنها ان الكوامل والبراطيم أعداء !  
ثم استطرد فى لهجة توحى بخطورة مايقول :

– والعمدة يعرف ان عدد رجال الشيخ محارب أكثر من عدد  
النخيل في بلدنا •

ثم لوح بقبضة يده وقال :

– الشيخ محارب طول عمره يحب الشكل •• سبع ابن سبع  
•• على الطلاق سبع !

\* \* \*



## الفصل الخامس

كان لاحديث للنجع طوال ذلك اليوم الا عن المعركة التى لم تتم .. وحينما دخلت المنزل وجدت أبى قد سبقنى الى هناك وبصحبه رجلان من قبيلتنا .. فرشت لهم احدى ( البروش ) المصنوعة من سعف النخيل .. ووضعت بينهم مائدة صغيرة قصيرة الارجل .. ومضوا فى احتساء الشاى والحديث عن الاحداث التى مرت بقبيلتنا فى الساعات القليلة الماضية .. وقد ابدوا ارتياحهم للاستعدادات العسكرية الحسنة التى ظهرت بها القبيلة فى هذا اليوم الذى دخل تاريخ القبيلة . وتحمس احد الرجلين ف ضرب المائدة الصغيرة بقبضة يده ضربة قوية اهتزت لها صينية الشاى وكأنها تحتج .. وقال مخاطبا أبى :

— ليتهم جاءوا .. لكنهم خافوا !

وبعد قليل انصرف الرجلان ووجدت نفسى فجأة مع أبى وجها لوجه .. فانتفض صدرى لشعورى باننى مقبل على مناقشة عاصفة قد يتقرر فيها مصيرى كله .. اما ان انفذ مطالب العائلة واخضع لمشيئتها وفى هذا الغاء كلى لشخصيتى .. واما ان ارفع راية العصيان واستعد لمقاطعة الاهل ومفادرة الجزيرة الحبيبة الى غير رجعة .. أمران أحلاهما مر .. شعرت برأسى يدور وكأن حرارتى ترتفع .. وبادرنى أبى قائلا :

— لم اسمع رأيك !

قلت وأنا أتهيا للنضال :

رأى قتلته !

قال وقد عقد ما بين حاجبيه :

— متى قتلته ؟ .. ولن ؟ .. وكيف قتلته بهذه السرعة ؟ !  
ولم ادر ماذا اقول .. فقد خيل الى انه عرف رأى منذ  
فاجأني اتحدث مع أمى وأختى ليلا .. فقلت فى هدوء وصوتى  
لا يكاد يسمع :

— ظننتك عرفته

فقال مستغربا :

— انا عرفته ؟ .. متى .. هل رأيتك الا الآن ؟

ثم استطرد بعد فترة صمت قصيرة :

— كان منظرک يعجبنى وانت تشمر عن ساعدك وتحمل  
النبوت وتقف فى الصف مع ابناء عمومتك مثل الأسد !  
ثم اخرج علبة ( المدغة ) وتناول منها كمية فى حجم القرش  
حشرها بين اسنانه وشفته السفلى .. وبصق بصقة تدل على  
اعتدال المزاج وقال :

— هل تعرف اننا كنا سنغلبهم لو انهم جاءوا ؟ .. عدم  
مجيئهم انقذهم من الفضيحة .. اليس كذلك ؟ .. ام ان لك  
رأيا آخر ؟ .. أريد أن أعرف رأيك .. لا تقل انك قتلته !

فقلت فى لعثمة وأنا أتنفس الصعداء :

— طبعا .. طبعا .. كنا سنغلبهم حتما !

قال فى حماسة :

— نغلبهم فقط ؟ .. يارجل قل غير هذا !

ثم اعتدل فى جلسته وقال وقد علا صوته وازدادت حماسته :

— كنا سنخسف بهم الأرض .. سنوقع بهم هزيمة يلاحقهم  
عارها الى الجيل السابع ! .. ونضيف الى مفاخرنا مفخرة جديدة  
تفخرون بها من بعدنا ! .. ونعيد الى الأذهان مجد قبيلتنا القديم !

ثم تنهد وهو يصلح من أمر الوسادة التي اسندها على  
الجدار .. واتكأ بكوعه عليها وقال :

— رحم الله أيام زمان .. قبل أن يأتى الجيل الذى أنت  
منه ويأتى بالنكبة معه .. كانت قبيلتنا تخيف أعظم قبيلة فى  
البلد .. لعن الله الفيضان .. حطم بيوتنا واتلف مزارعنا فشنت  
رجالنا الى مصر .. كنت أنت أيامها فى السادسة من عمرك ..  
الم أقل لك ان جيلك جاء بالنكبة معه ؟

قلت مجاملا :

— حقا .. جيل مشثوم !

قال — وقد استبدت به الرغبة فى الحديث كعادته عندما  
يشغله أمر :

— هل رأيت تلك الخطة التى وضعها حسب الله ؟ .. ياله  
من ولد مفكر ذى عقل كبير .

وهنا جاءت امى تحمل صينية صغيرة عليها براد من الشاي  
لانى لم ادرك الشاي الذى صنع للرجلين .. قالت وقد سمعت  
ذكر حسب الله :

— ربنا يحفظه ويحفظ كل رجالنا

فواصل أبى كلامه قائلا :

— كانت خطته تشبه خطط الشياطين !!

فقاطعت امى قائلة وهى تناوله كوب الشاي :

— لا تقل الشياطين بسم الله الرحمن الرحيم .. قل مثل  
خطط الملائكة !

أفصاح فيها وهو يلقي ( المدغة ) بعيدا عن فمه استعدادا  
لارتشاف الشاي من جديد :

— اسكتى يا امرأة .. ما الذى ادراك أنت بمثل هذه الاشياء؟  
ثم التفت ناحيتى وقال فى لهجة متعالية يغلب عليها المرح :

— امك امرأة جاهلة !!  
وتم يبد على أمي أنها تأثرت لكلمته .. تقبلتها كأمر مسلم  
به فقالت :

— طبعاً .. وهل النساء مثل الرجال ؟!  
فنظر ناحيتي وقال في حزن :  
— كنت أتمنى أن تكون في الصف الأول مع المهاجمين ..  
لكنهم وضعوك في الصف الثالث .. فلماذا ؟

ولما لم يسمع مني إجابة تكفل هو بالرد على نفسه فقال :  
— لأنك لم تخض معركة واحدة في حياتك .. وهذا عيب في  
حقك .. الرجل الذي لم يجرب القتال ليس برجل .. ساءنى ان  
أرى ( سالم ) ابن عمك — هو شقيق سلمى — في الصف الأول  
بينما انت في الصف الثالث !

قلت — وأنا لا أدري ماذا أقول — :  
— ربنا يصلح الاحوال  
فعقب على كلامي فى أسى :  
— ليتنى اراك مسكان حسب الله تنظم الصفوف وتضع  
الخطط .. لا سيما وانك رجل متعلم !  
فرددت بقولى :

— ليس شىء على الله بكثير !  
وهنا سمعنا ضربات خفيفة على الباب انفتح على أثرها  
وظهرت نجلة فلمحتني ولم تلمح أبى .. فصاحت تخاطبني  
في مرح :

— أهلاً بأخى فارس الفرسان !  
فرد عليها أبى فى سخرية مرحة :  
— أهلاً بك أنت يا أخت أبوزيد الهلالى !  
وفوجئت نجلة بوجود أبيها فتلعثمت وهى تخاطبه



— كيف حالك يا أبى ؟  
فرد عليها فى اقتضاب وإن كان الحنان يخالط صوته رغم  
خشونته الظاهرة .

— بخير .. نحمده  
فقلت مهنئة كما يحدث بعد كل معركة :  
— حمدا لله على سلامتكم  
فردت أمى نيابة عنا :  
— الله يسلمك

وجلست نجلة التى تأتى لزيارتنا كل يوم تقريبا لقرب النجع  
الذى يقع فيه بيت زوجها من نجعنا .. وقالت تخاطب أباهما  
فى أدب جم :

— هل حقا ان الشيخ محارب كان سينضم اليكم يا أبى ؟  
فرد الوالد فى أنفة وكبرياء :  
— جائز .. نشكره على كل حال .. لسكننا والحمد لله  
لا نحتاج اليه .. كانت خطتنا كافية لسحق البراطيم ومن هم  
أقوى من البراطيم .

يا لذكاء نجلة .. هى ليست فى حاجة الى سؤالها ..  
فزوجها ( مهدي ) ينتمى الى قبيلة الكوامل التى يتزعمها الشيخ  
محارب .. كل ما أرادت ان تلفت النظر اليه فى سؤالها هو ان  
زوجها سيكون معنا اذا ما تدخلت قبيلته فى المعركة .. أرادت  
ان تقول : ليست قلوبنا فقط معكم .. ولكن ( سيوفنا ) أيضا !

\*\*\*

ظل أبناء قبيلتنا يحملون النابيت لمدة ثلاثة أيام استعدادا  
للطوارئ .. يحملونها سواء اكانوا فى البيوت أو فى الحقول ..  
وفى اليوم الرابع دخل علينا غلام وخاطب أبى قائلا :  
— الاشراف فى الخيمة



وخرج أبى . . وخرجت معه . . وفى الخيمة وجدنا جماعة من قبيلة الاشراف بينهم كبيرهم الشيخ منصور . . صافحهم أبى وامر باعداد القهوة . . وتوافد ابناء قبيلتنا عند سماعهم بوجود وفد الاشراف . . وراحوا يصافحونهم ويرحبون بهم ويتحادثون معهم فى شتى الموضوعات . . ثم وقف الشيخ منصور بوجهه الوديع وراح يخطب .

« بسم الله الرحمن الرحيم . . الحمد لله وحده . . وصلاة الله على من لانبى بعده . . اما بعد . . استقر الراى يامساعيد ( اسم قبيلتنا ) على أن يكون الصلح بينكم وبين البراطيم عندنا . . انتم جميعا اخوتنا . . ويقول الله تعالى : ( انما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم ) . . » والصلح خير . .

ومضى الشيخ منصور فى خطبته وابناء قبيلتنا ينصتون فى احترام شديد . . والحق ان قبيلة الاشراف تختلف عن اية قبيلة أخرى فى قرينتنا . . فأكثر ابناء هذه القبلية يحفظون القرآن الكريم . . بل ان الكثيرات من نسائهم يحفظنه . . وقد عرفوا بدمائة الخلق والبعد عن المشاكل مما أكسبهم احترام كل أهل القرية . . وأكثر مجالس العرب التى تعقد للصلح . . تعقد فى خيمة الاشراف . . وقال الشيخ منصور فى خطبته :

« وسيكون الصلح يوم الخميس القادم ان شاء الله »

وقال له أبى بعد ان فرغ من خطابه :

— يوم الخميس . . يوم السوق

فابتسم الشيخ منصور ولحيته البيضاء الصغيرة تضى وجهه :

— ليكن الجمعة

قال أبى :

— السبت أفضل

رد الشيخ منصور :

— وهو كذلك

ثم سألته أبى :

— هل ذهبتُم الى الشيخ محارب ؟

قال الشيخ منصور :

— سنذهب اليه الآن .. باذن الله

قال أبى :

— اذا وافق .. ابلغنى

قال الشيخ منصور وهو يستعد للانصراف :

— حاضر

ولما قمنا نشيع الاشراف حتى آخر حدود النجم ..

سمعت حسب الله يقول للشاب جاد :

— الصلح بيننا وبين البراطيم .. اسهل من الصلح بين

البراطيم وبين اخوانك ( يقصد الكوامل )

فرد عليه جاد مفاخرًا باخواله :

— طبعاً .. الحية لا تنسى قطع ذنبها !

\* \* \*

تلاشت أحداث المعركة وهدأت النفوس تماماً بعد أن جاءت الاخبار بموافقة الكوامل والبراطيم على الصلح عند الاشراف .. والقى أبناء قبيلتنا النبأيت وحملوا مكانها الفتوس وكأن الهدنة قد اعلنت وتحولت القضية الى مجلس الامن .. وانتهزت فرصة الهدوء والارتياح النفسى الذى عم الجميع .. وهرعت الى احب مكان الى نفسى فى الجزيرة الخضراء .. الى فرع النيل الذى يقع جنوب الجزيرة .. أصغر الأفرع وأجملها على الاطلاق .

استأجرت قارباً صغيراً من تلك التى تستخدم لصيد الأسماك .. ورحت أذرع به الفرع جيئةً وذهاباً .. كانت الاشجار الغزيرة العملاقة تملأ الشاطئ الشمالى وكأنها تحرسها



.. وأغصانها تتسلى فتلامس الماء فى دلال وكأنها تتحسس أو تستكشف درجة برودته استعدادا للاستحمام .. بينما الشاطئ الآخر - وكان لجزيرة صغيرة تابعة لجزيرتنا - قد انتشرت عليه مزارع ( الشرنجيج ) ذات البذور الشبيهة ( بالفاصوليا ) .  
كان شاطئ الجزيرة الكبيرة يرتفع تدريجيا حتى يبلغ علوا شاهقا .. بينما شاطئ الجزيرة الصغيرة ينبسط فى تواضع تحت أقدام الشاطئ الشامخ وكأنه يعلن له الولاء والتبعية !  
ومن بعيد ظهر حوش كبير للنخيل .. كان لى فيه ذكريات أيام الطفولة .. كنت أذهب اليه مع أصدقاء الطفولة ( أمين ) و ( جاد ) فنجد جدى لأمى جالسا امام باب الجنينة فى طرف الحوش .. وبمجرد أن يرانا تنفرج أساريره وتنضح كل تجاعيد وجهه بالسعادة .. ويهتف فى فرح :

- جئتم يا ( حلوين الملتقى ) ؟

فكنت أقفز الى أحضانه فيضمنى الى صدره وأقول له :

- أريد أن أكون ابنك أنت !

يسأئنى وهو يضحك :

- لماذا ؟

فاقول له فى لهجة من يريد أن يبكى :

- لأن أبى يضربنى !

يضمنى الى صدره أكثر ويقول :

- لأنك شقى

فاقول له فى عتاب :

- الا تريد ان اكون ابنك ؟

يرد وهو يضحك :

- لكنك ابنى

فاقول له فى عدم تصديق :

- لو كنت ابنك .. لما تركتنى أذهب عنده .

فيرد في لهجة كانها جادة :

— غدا .. سأذهب اليه واشتريك منه

واشعر بالفرح .. ويشير الى الجنينة ويقول :

— هاتوا العنب الواقع

فندخل الجنينة فرحين .. ونجد الكثير من شماريخ  
العنب الطازجة ملقاة على الأرض .. من فعل ثعلب ماكر يأبى عليه  
حسده الا أن يتلف أكثر مما يأكل .. فكنت أصبح في الرفاق  
بعيدا عن جدى :

— لا تأخذوا الواقع على الأرض .. هذا فيه قم  
( ابو الحصين ) .. اقطعوا عنباً جديداً !

فنقطع شماريخ جديدة نضع عليها القليل من التراب  
ونذهب بها الى جدى .. يغسلها فى القناة الصغيرة التى امامه  
ويرقبنا فى سعادة ونحن نأكل .. ونلقى بما يفيض الى النعاج  
المربوطة بالقرب منا .. وما ان نفرغ حتى أصبح :

— نريد مانجو

فيقول فى أسف :

— المانجو بعناها

فأتطلع الى أشجار المانجو والثمار الصفراء تتدلى من  
أغصانها وأنول فى دهشة :

— لكنها موجودة !

فيتحسس سببته ويقول فى لهجة جادة :

— بعناها .. الاكل منها حرام .

ولا أفهم ما يعنيه .. فنوهمه بأننا سننصرف حتى اذا  
ركب الحمار عائدا الى البيت نعود الى الجنينة فنجد بابها  
مغلقة ولا سبيل الى تسلق السور .. فندخل من فتحة القناة  
المارة تحت السور ونحمل ما نقدر على حماله من ثمار المانجو ..  
ونأتى الى فرع النيل الجنوبى — حيث أقف الآن — لنقتسم

الفنيمة حيث لا يرانا احد .. فكان أمين يصيح :

— أنا نى كرشان .

ونصدق ان له كرشين فيأخذ نصيب اثنين ..

أين هم الآن ؟ .. لم يبق الا جساد .. جدى مات .. وأنا  
فى الاسكندرية .. وامين لا اعرف عنه شيئا .. جاء الفيضان  
فحطم نجعنا وهاجر مع أسرته الى حيث لا أعلم .

\*\*\*

لهوت بقاربى ماشاء لى اللهو .. حتى اذا اقترب العصر خرجت  
من الماء فى اتجاه البيت .. والتقى بى عامل البريد فناولنى رسالة  
خفق لها قلبى بمجرد رؤيتى لغلافها الازرق وخطها الانيق .. كانت  
الرسالة من أحب الناس الى قلبى وأقربهم الى عقلى وأكثرهم فهما لى  
والتصاقا بى .. من نادية .

تناولت الرسالة فى لهفة .. ورحت أعيد قراءة السطرين  
المكتوبين على الغلاف وكأن هذين السطرين يحملان معنى آخر غير  
العنوان .. ثم فضضتها على مهل .. وبرفق عجيب وكأننى أشفق  
من تمزيق الغلاف الجميل .. أو كأننى أخشى على اللحظات الجميلة  
القادمة من الضياع .. وقرأت :

مصطفى

كيف حالك يا مصطفى ؟ .. أوحشتنى جدا والله .. جدا  
لماذا لم تكتب لى يامصطفى ؟ .. هل وجدت أحبابك فنسيت  
أصحابك كما يقولون ؟

عادل تقدم لخطبتى للمرة الثانية .. رفضته طبعاً .. وسأرفضه  
— هو أو غيره — للمرة العشرين .  
العائلة — كالعادة — منقسمة الى قسمين .. أبى من صف

عادل .. وأمي و (نبيل) من صفى .. لا يهيك شيء .. سأنتظرك  
عشرين سنة .. بل العمر كله .. الى أن تأتي عجوزا حانى الظهر ..  
فأسندك وأساعدك على الجلوس .. فتسعل كثيرا قبل أن يفتح الله  
عليك وتنطق لتقول انك أحضرت (الشبكة) !

على فكرة .. سينما (مترو) تعرض فيلما تاريخيا فى منتهى  
الروعة .. اسم الفيلم (الهرم الاكبر) .. اعتقد ان عرضه سيتم  
اسبوعا آخر .. ليتك تشاهده .

وأفيدك بأننى انتهيت أمس من قراءة رواية (البؤساء) للمرة  
الثانية .. كيلا تتهمنى بأننى لم أفهمها .. أنا الآن مستعدة  
لمناقشتك فيها من جديد .. وأحب أقول لك انك انت الذى لم تفهمها  
ولست أنا يا أستاذ !

وقبل أن أنسى أحب أقول لك أيضا .. ان عادل جاء لزيارتنا  
قبل أن يعيد المحاولة الثانية بيوم واحد .. استغل فى ذلك صلة  
القرابة التى تربطه بالوالد .. حاول أن يقلدك فى أحاديثه كى  
يلفت نظرى وينال إعجاب العائلة .. راح يتكلم فى الادب والموسيقى  
والشعر .. لكن أى تقليد ؟ .. أين (ترعة المحمودية) من البحر  
الابيض ؟

أجمل تعليق على حديثه سمعته من ماما .. همست فى أذنى  
وقالت : « كلامه ماسخ ! »

ماما تسلم عليك ونبيل يبلغك أحر تحياته .. أما ( بطاطا )  
فانه دائم السؤال عنك .. يسألنى يوميا : « أين أبى مصطفى ؟ » ..  
عد اليه .. أرجوك !

لا تنس أن تحضر معك (البلح) .. دمك ثقيل !

« نادية »



## الفصل السادس

أعادتنى رسالة نادية الى أجمل فترة مرت بى فى حياتى ..  
كان ذلك فى بداية حياتى العملية .. عندما استأجرت لنفسى  
(شقة) بحى كليوباترا الحمامات .

فى اليوم الاول من استقرارى فى مسكنى الجديد .. تعرفت  
بالسيدة (صفية) التى تسكن فى الشقة المواجهة لشقتى .. كانت  
امراة فى الخمسين من عمرها تميل الى البدانة قليلا .. طيبة القلب  
.. خفيفة الروح .. أهم ما يميزها بساطة متناهية تفرض على المرء  
حبها واحترامها .. ويخيل لمن يحادثها لأول مرة انه يعرفها منذ  
زمن بعيد .

رحبت بى السيدة صفية ترحيبا حارا أشعرنى وكأننى جار  
عزيز قديم .. ودعتنى لتناول القهوة فى بيتها والتعرف الى زوجها  
السيد (عزت) .. وقدمته الى فرأيت فيه رجلا اقرب من الستين ..  
متوسط الطول .. نحيف الجسد .. امتلأ شعر رأسه بالمشيب ..  
تجاعيد وجهه تعبر عن طيبة تشبه طيبة زوجته الى حد بعيد .. الا  
انه كان - على العكس من زوجته - قليل الكلام ويبدو على تصرفاته  
طابع الروتين العتيد الذى أمضى حياته فى التعامل معه !

استقبلنى الرجل استقبالا حسنا استمد حرارته من حرارة  
استقبال زوجته .. التى راحت تحادثنى بفرح حقيقى وكأنها عثرت  
على كنز عظيم !

ودخل علينا بعد قليل غلام صغير فى السابعة من عمره تبدو

عليه مخايل (الشيطنة) .. قدمته الى على انه اينها : (بطاطا) !  
عقد بطاطا ما بين حاجبيه ونظر الى شذرا وقال لأمه متسانلا  
- من هذا ؟

فردت عليه وهي تربت على كتفه ملاطفة :

- الاستاذ مصطفى .. جارنا الجديد

فردد أصابعه ومد يده نحوى وصاح :

- « هأت قرش »

فنهرته أمه .. وزمجر أبوه .. وانفلت من بين أيدينا عائدا  
الى استئناف لعبه فى الخارج .. وانفجرنا ضاحكين .

وكانت ومضته بيننا مجالا شيقا للحديث عن الاطفال وبراءاتهم  
وزالت الكلفة بيننا تماما بأسرع مما كنت أظن .

ومع رشقات الشاى وعبارات الترحيب .. أشارت السيدة  
صفية الى صورة معلقة على الحائط لشاب فى نحو السابعة عشرة  
وقالت :

- نبيل .. ابنى

فالتفت ناحية الصورة وقلت :

- ما شاء الله .. ربنا يحفظه

فاسترسلت قائلة :

- مسافر مصر .. هو واخته .. سيرجعان بعد عشرة أيام

قلت مجاملا

- بالسلامة ان شاء الله

استطردت قائلة

- خالتهم اشتاقت لهم فذهبوا اليها .. هى تحبهم وهم يحبونها  
قلت :

- ربنا يخليها لهم

ثم نهضت وتركتنا لتعود بعد قليل تحمل بين يديها اطارا  
صغيرا لفتاة فى نحو العشرين .. وقالت :

— بنتى .. نادية

ونظرت الى الصورة فلم يلفت نظرى فيها شيء .. صورة عادية لفتاة متوسطة الجمال .. لا يميزها عن أكثر الفتيات شيء .. لم أكن راغبا فى اطالة النظر الى صورة فتاة يبدو من مظهرها انها تكثر الحديث عن المودات وآخر صيحات الازياء .. خصيلة الشعر المدلاة على الجبين تدل على السطحية والتفاهة .. لكن السيدة صفية راحت تتحدث عن ابنتها قائلة :

— هاتها فى حجرة ملآنة بالكتب وأغلق عليها .. من الصباح الى المساء على قلبها مثل اللين !

تنبعت حواسى كلها لكلمتها .. عدت أنظر الى الصورة من جديد .. وقلت للسيدة صفية :

— ماذا تقصدين ؟

قالت وهى تقرب منى (منفضة السجاير) :

— تحب قراءة الكتب بطريقة غير معقولة .. وخصوصا كتب

الشعر .

ثم استطردت ضاحكة :

— فى بعض المرات تقرأ على كلاما فى منتهى الجمال .. ومرات

أخرى تقرأ كلاما لا أفهم منه حرفا

ثم أضافت فى براءة :

— بنات اليوم عجيبات !

فى هذه اللحظة .. شعرت بشيء يتحرك فى صدرى .. فسرتة بينى وبين نفسى بأنه مجرد فضول .. لكننى أحسست برغبة قوية فى التعرف الى نادية .. فى نفس الوقت شعرت برهبة من المكان خيل الى — ولأول مرة منذ حلستنا — ان حديثى مع السيدة صفية وزوجها بدأ يلفه شيء من الكلفة .. لست أدري السبب .. لكننى تنبعت على صوت السيدة صفية تقول لى وهى تمعن النظر فى الاطار

الصغير الذى بين يديها :

— مخطوبة .. لكنها عنيدة !

وانفجرت الكلمة فى رأسى .. تحفزت فى جلستى وشعرت  
بأن الأمر يهمنى .. فقلت مستوضحا :  
— مخطوبه لمن ؟

قالت :

— لعادل .. قريب أبيها .. شاب ابن حلال وفى مركز  
محترم .. لكنها لا توافق .. لماذا ؟ .. لست أدرى !  
وتغلبت على رواسب الصعید التى تعيش فى أعماقى وقلت :  
— لعلها لا تحبه ؟

فتدخل الاب فى الحديث وقال فى انفعال :

— لكنه يحبها .. وهذا يكفى !

قالت الام وكأنها تخاطب زوجها أكثر مما تخاطبنى :

— لكننا لا نستطيع ارغامها

فنظر الاب ناحيتى وقال وان كان فى الواقع يرد على زوجته:

— الحب يأتى بعد الزواج

قالت الام وهى تمصمص شفيتها :

— هذا كان .. زمان !

لافض فوك ! .. فعلا هذا كان زمان .. نادية عندها حق ..

عادل ليس ندا لها .. هل أنا أعرف عادل ؟ .. لكن نادية محقة ..

أجل .. محقة !!

وصنمت الاثنان .. وانصرفت من عندهما وأنا أشعر بأن رباطا

قويا أحس به ولا أراه .. يربطنى بهذه العائلة .

\* : \*

تعودت فى مساء كل يوم أن أمكث ساعة أو بعض ساعة عند



السيدة صفية وزوجها السيد عزت خلال الاسبوع الاول من سكنى بجوارهما .. كنت أجد تشجيعا منهما وكنت فى الواقع فى حاجة شديدة الى من يؤنس وحدتى فى الحى الجديد على .. كانت جنستهما ممتعة لم أتغيب عنها يوما إلا لعذر قاهر .. فكنت طوال هذه الأمسيات أترقب اليوم الذى تقول لى فيه السيدة صفية: « نادى ستأتى غدا » .. ولكن بالرغم من كثرة أحاديثها عن ابنائها لم تذكر لى اليوم الذى سستعود فيه نادى .. حتى موت الايام العشرة التى ذكرتها فخيلى الى بعدها ان نادى هذه ماهى الا شخصية خرافية شأنها فى ذلك شأن ( العنقاء ) ! .. وكل الجديد الذى عرفته ان نادى موظفة باحدى الشركات .. التحقت بالعمل بعد حصولها على الثانوية العامة .. وأن نبيل لا يزال طالبا .

وفى ذات صباح .. وبينما كنت أتهيأ للخروج الى عملى .. وفى اللحظة التى أغلقت فيها الباب الخارجى .. فتح الباب المواجه وظهرت منه فتاة جميلة مشوقة القوام تحمل فى يدها حقيبة نسائية أنيقة .. ما ان رأيتها حتى وقفت أحملق فيها مشدوها دون أن اتفوه بحرف واحد .. كانت الدهشة .. كما قالت لى فيما بعد .. مرتسمة بوضوح على تعبيرات وجهى وكان فى نصف مفتوح .. ابتسمت فى وجهى وقالت متسائلة :

— حضرتك مصطفى ؟

ثم استدركت مسرعة :

— الاستاذ .. مصطفى ؟

فقلت على الفور وفى لهفة شديدة :

— نعم .. حضرتك الآنسة نادى ؟

فردت ضاحكة :

— نعم

وتصافحنا بحرارة

وقد قالت لى - فيما بعد - اننى يومها لم أصافحها كما  
بتصافح بقية خلق الله .. ولكن الصحيح هو اننى ( هجمت ) عليها  
مصافحا !

كان هناك تناقض واضح بين مظهر نادية الخارجى وبين  
طبيعتها الاصلية .. فمظهرها الخارجى يوحى بالارستقراطية  
والتهالى .. عنق بديع .. يحمل وجهها جميلا .. يتوسطه أنف  
دقيق يجعله أشبه ما يكون بتمائيل الاغريق القديمة .. ولكن عندما  
تتحدث .. تبدو البساطة الشديدة فى حديثها الى الحد الذى يقرب  
من براءة الأطفال .. حتى تعبيرات وجهها المتعالية تتحول عند  
حديثها الى تعبيرات طفولية محببة .. ولعل هذه البساطة هى أهم  
ما ورثته عن أمها .. قالت لى ونحن نسير فى طريقنا الى محطة  
الترام :

- ماما حدثتنى عنك كثيرا .. يبدو انها تحبك جدا  
فقلت لها صادقا :

- الحقيقة أنا الذى أحبها جدا .. أنا أعتبرها أما ثانية لى  
وعندما ركبنا الترام - اذ ان طريقنا واحد - قلت لها :  
- رأيت صورتك .. وما أنا أراك الآن .. الفرق كبير بين  
الصورة والاصل .. الصورة لم تنصفك !  
فتوردت وجنتها ورددت فى حياء :  
- متشكره !

واسترسلنا فى حديث بسيط .. وساد بيننا تفاهم تام ..  
ثم نزلت هى فى محطة (الازاريتة) .. وواصلت أنا طريقى الى محطة  
الرميل .



تعددت لقاءاتنا - أنا ونادية - وتشعبت بيننا الاحاديث ..

فكانت أجمل لحظات حياتي هي لحظات الصباح التي كنا نقضيها معا وكل منا في طريقه الى عمله .. بدأت الصلة بيننا بفهم كل منا الآخر .. ثم تحول الفهم بعد بضعة أيام الى ارتياح كل منا لصاحبه .. ولم تمر عدة أسابيع حتى انقلب الارتياح الى حب جارف عنيف .

في البداية كنت أقضي الامسيات عندهم .. فكنا نتحدث كثيرا - أنا ونادية - بحضور الأب والأم .. وبحضور نبيل الذي تعرفت عليه وأصبحنا صديقين .. كنا نتحدث في كل شيء وببساطة تامة دون أن نجد في ذلك حرجا .. لكن مع مرور الايام .. وعندما بدا كل منا يحس انه لا غنى له عن الآخر .. اندثرت أحاديثنا بحضور الاب والام .. فاذا انفردنا ببعضنا في الطريق صباحا .. انطلقت ألسنتنا من عقالها وبعد أن كانت أحاديثنا قاصرة على الفن والشعر والموسيقى .. أصبحت خاصة بنا نحن الاثنين فقط .. أحدثها عن نفسها .. وتحدثني عن نفسي ! أنا أحكى لها عن الليلة الماضية وكيف أنها كانت ساهمة لا تتكلم كثيرا وان خصلة شعرها الامامية كانت بعيدة عن موضعها الطبيعي بحوالي خمسة سنتيمترات ! .. وهي تبرر لي سلوكها بأنها - أيضا - لم تذق للنوم طعما لانها سمعت أغنية تدور حول الزمن الغادر الذي قد يفرق بين الاحبة ! .. نسينا الشعر والفن الذي شدني اليها وشدها الى .. ولم نعد نذكر منه الا ما يخص الحب والمحبين .. لم أر شيئا أو أسمع شيئا خطيرا أو تافها الا حفظته عن ظهر قلب كي أنقله اليها .. فأجدها تعيد الى اسماعى ما رأته أو سمعته هي أيضا .. ولم يمر بنا يوم الا وكان به هجر وخصام ودلال وصلاح .. لكن الخصام لم يكن يزيد عنى الساعة أو بعض الساعة .. ولم يكن للخصام أسباب قوية .. مجرد لفظة أو ايماءة من أحدها للآخر يفسرها على هواه قد ترضيه وقد تغضبه .. لكن في الغضب يكمن الرضا .. وفي الهجر تكمن النية على الصلح !

تغيرت الدنيا في نظري تماما .. وأصبح لكل شيء طعما جديدا  
ومذاقا جديدا .. كنت كمن يحلق في أجواء عليا تختلف عن أجواء  
البشر !

ولم نستطع أن نكتم حبنا عن الاسرة - أسرة نادية - فضحتنا  
نظراتنا وحركات ايدينا العفوية وتهديج صوتينا .. فذاع خبر الحب  
بين أفراد الاسرة وأصبح حديث الجميع .. وكان لنادية شخصيتها  
في البيت .. كان أبواها ينظران اليها بتقدير كبير .. وكان والدها  
يتمنى لها أن ترتبط بعادل لقرابته منه وان كان مستوانا - أنا  
وعادل - متقاربا .

أما الام .. فقد كانت فرحة بهذا الحب وان لم تعلن ذلك  
صراحة .. كانت سعيدة لسعادة ابنتها .. كما كانت ترتاح الى  
أكثر من ارتياحها لعادل .. أما نبيل .. فقد أصبح صديقا حميما  
لي للمتقارب الشديد بيننا في الامزجة .. ومع مرور الايام صرت  
كأنني أحد أفراد الاسرة .. حتى ان ( بطاطا ) الصغير كان لا يناديني  
الا بيا (أبيه مصطفى) .. وشعرت لأول مرة في حياتي بحلاوة  
الاندماج في أسرة .. فقد عشت طوال حياتي شبه غريب أفقد جو  
الاسرة وحنانها .. عشت طوال فترة الدراسة عند عائلة هي ليست  
عائلتي على كل حال .. كنت أعامل فيها معاملة الضيف .. فإذا  
ذهبت الى القرية لقضاء أجازة عوملت بين عائلتي الحقيقية معاملة  
الضيف أيضا .. لم يحدث مرة ان ثرت على طعام أو شراب أو  
ملبس لم يعجبني .. فالضيف لا يثور وليس من حقه أن يثور ..  
من هنا كانت سعادتي بحب نادية مزدوجة .. اندمجت في أسرتها  
الى الدرجة التي أصبح لي رأى في كل كبيرة وصغيرة من شئون  
الاسرة .. ومع ان نظرات الابوين كانت توحي دائما أن نضع حدا  
لهذه العلاقة - باعلان الخطبة مثلا .. كان ما يدور بيني وبين  
نادية من أحاديث يشمل كل شيء الا هذه النقطة .. وكأن ارتباطنا



أصبح أمرا مسلما به لا يحتمل الخوض في مثل هذه التفاصيل .  
ومرت عدة شهور على حياتي الجديدة في هناء وسعادة الى ان  
كان يوم . . عدت فيه من عملي لأجد نبيل ينتظرني على باب العمارة  
ويقول لي في قلق :

ـ والدك وصل !

فدق قلبي بعنف . . .

لقد زارني أبي عدة مرات أثناء اقامتي عند الأسرة التي تمت  
الينا بصلة القرابة . . ولم تكن زيارته في العادة تزيد على اليوم أو  
اليومين . . فكنت أفرح بزياراته . . لكنني هذه المرة ارتعت  
لزيارته . . فقد جد في الامر جديد . . ترى . . ماهو موقفه من  
نادية ؟ . . وما موقفها منه ؟ . . لقد سبقتني نادية الى البيت في ذلك  
اليوم . . فهل رآته ورآها ؟ . . وما انطباع كل منهما عن الآخر ؟ . .  
لقد حدثت نادية كثيرا عنه . . لكن الفارق كبير بين الحديث عن  
أبي من بعيد . . وبين وجوده بلحمه ودمه ومفاهيمه عن الحياة  
والناس . . اللهم لطفك ورحمتك !

وقلت لنبيل :

ـ متى وصل ؟

قال وقد خيل الى أنه شبه مذهول :

ـ أبي التقى به مصنادفة وهو يدق باب شقتك . . فأدخله  
عندنا لما عرف انه والدك

وصعدت السلم قفزا . . ووجدت أبي يجلس في حجرة  
الاستقبال وبجانبه السيد عزت وزوجته السيدة صفية . . يحيطان  
به احاطة الوزراء بالملك . . ويرحبان به في ود ظاهر . . لكنني  
لاحظت عليه انه كان قلقا في جلسته . . وصحبته ـ بعد أن تعانقنا  
طبعاً ـ الى شقتي . . وبمجرد أن أغلقنا وراءنا الباب قال لي وهو  
يخلع ملابسه :

- هل انت صديق هذه الاسرة .. أم هي مجرد جيرة ؟  
قلت بعد تردد :  
- نحن جيران وأصدقاء في آن واحد .. فهي أسرة طيبة جدا  
فزمت شفتيه وقال وهو يناولني العباءة :  
- أسرة طيبة فعلا .. لكن  
ثم انشغل بخلع الزعبوط الواسع واكمل قائلا :  
- الام والبنت لا حياء عندهما .. ويظهر ان الاب ليس له في  
الامر شيء !  
فقلت في حرارة وأنا أتمنى أن يصدق كل كلمة أقولها :  
- بالعكس يا والدي .. انها أسرة طيبة جدا .. كل ما هناك  
انهم كانوا يرحبون بك لانك ضيفهم .  
ثم استطردت في حرارة وأنا أحاول أن أمس وترا حساسا  
اعرف مقدار تأثيره عليه :  
- انهم (عرب) مثلنا .. يحبون الضيف ويرحبون به ولا  
يدخرون وسعا في اكرامه .  
فقال في لهجة ساخرة :  
- لا .. الترحيب ليس هكذا يا شيخ مصطفى !!  
ثم صمت قليلا وقال  
- الرجال هم الذين يرحبون بالضيف .. وليس النساء ..  
ولما لم أرد عليه قال ينصحنى :  
- لتكن علاقتك بهذه الاسرة علاقة جيرة فقط .. هذا أفضل .  
استغرقت زيارة أبي يومين .. كانت أخطر فتراتها تلك التي  
قضيناها في منزل السيد عزت عندما استضافنا - أبي وأنا - على  
العشاء .. التفتت الاسرة كلها حول مائدة العشاء كعادتها وراحت  
ترحب بالوالد وتحاول أن تشعره أنه في بيته .. بينما كان هو

طوال الوقت لا يستطيع أن يخفى استياءه من ( الاستهتار ) الذى ظهرت به (النساء) والذى وصل الى حد الجلوس معه على مائدة واحدة ومشاركته الطعام !! ..

فى تلك الفترة حاولت أن أبـدو طبيعيا فى تصرفاتى لـسـكـنـى لم أستطع .. ذابت شخصيتى الحقيقية فى وجود أبى وحلت محلها الشخصية التى يعرفها هو عنى .. الشخصية التى تطيعه وتنفذ أوامره .. وتوافق على كل ما يصدر عنه من قول أو فعل .. وغادرنا البيت بعد أن شكرنا السيد عزت وعائلته .. لكن أبى كان قد ترك بصماته واضحة على كل أفراد الأسرة الطيبة .. ومنذ ذلك اليوم .. بدأ القلق يساور نادية على حينا .. وبدأ التشاؤم يلون نظرتها الى المستقبل بلونه القاتم .. الا أن حبنى لها كان يملؤنى بإيمان عميق بأننى سأتمكن من اقناع أبى بالزواج منها .. كنت أعرف أن هذا مستحيل .. لكن إيمانى كان عجيبا بأننى سأقنعه .. وبعد عدة شهور .. فاجأتنى برقيته بلهجتها الحاسمة « احضر فوراً » .. فشددت الرحال الى الجزيرة ..

## الفصل السابع

عدت الى قراءة رسالة نادية من جديد .. ولما رأيت نفسى قد اقتربت من النجع وضعتها فى جيبى وكأننى أخشى عليها من نظرات الناس .. وأسرعت الخطى الى البيت لأخلو الى نفسى وأعيد القراءة مرات ومرات .. ووصلت الى البيت .

كان أبى يجلس على سرير الحبال ( العنجريس ) القريب من المدخل .. كان ينفخ من الغيظ والشرر يتطاير من عينيه .. ما ان ألقيت عليه السلام وتجاوزته بقليل حتى صاح فى خشونة :  
- خذ يا ولد !

وللحظة تجمدت فى مكانى .. شل عقلى عن التفكير .. كانت طريقته فى نطق كلمة ( يا ولد ) هى نفس الطريقة التى يتبعها مع خصومه فى مناقشاته الحادة .. مهما كانت مكانة أو أعمار هؤلاء الخصوم .. اذن فأنا فى موقف الخصوم الساعة .. انها اللحظة الحاسمة أتت تسعى على قدمين .. يجب أن أتمالك شعورى وأضبط أعصابى .. وأدافع عن وجودى وأثبت لأبى أن هناك شخصية جديدة يجب أن يعرفها ..

استدرت وقلت فى أدب برغم غيظ مكتوم :

- نعم

قال :

- هل سمعت بما حدث ؟

قلت فى دهشة :

- ماذا حدث ؟

قال فى صوت غاضب :  
 - الحاج عبد الرحمن ( والد سلمى ) بلغه انك رفضت الزواج  
 من ابنته .  
 وصمت قليلا .. ثم استطرد وقد اختلط الغضب فى صوته  
 مع الأسى :  
 - وارسل لنا يقول انه يشكرنا ولا داعى لتقليب هذه السيرة  
 مرة أخرى .. وانه سيزوجها من أى أحد .  
 شعرت كأن معجزة من السماء قد وقعت .. ارتاحت نفسى ..  
 وتراخت أعصابى المشدودة .. حمدت الله فى سرى .. قلت فى  
 نفسى ستمر غضبة الوالد كما مر غيرها .. ولا داعى لصدام بينى  
 وبينه .. ولتكن صورتى أمامه كما يراها وكما يحب أن يراها ..  
 ما دام الأمر قد مر بسلام أو كاد .  
 قلت بطريقة مؤدبة وبصوت خفيض :  
 - أنا آسف يا أبى على ما حدث .. وكل شىء نصيب ..  
 وأرجو أن تسعد سلمى فى حياتها الجديدة .. و ..  
 فقطعنى ونظراته النارية تكاد تلتهمنى :  
 - ماذا تقول ؟ .. نصيب ؟ .. أى نصيب يا ابن أمك ؟  
 قلت وقد ارتج على :  
 - ألم تقل انه سيزوجها ؟  
 قال فى سخرية :  
 - وهل ندعه يزوجها من غيرك ؟  
 قلت وأنا كالغريق الذى يبحث عن أى شىء يتعلق به :  
 - لكنه هو لا يريدنى .. اليس كذلك ؟  
 فرد فى حدة :  
 - هو من واجبه أن يقول ذلك .. ونحن من واجبنا أن  
 نسترضيه .. أفهمت يا تربية البنادر ؟  
 قلت وقد اختلطت المراثيات أمام عينى :

— لكننى لا أريد الزواج

فعلا صوته وتدفقت الكلمات من فمه كالسيل :

— لا تريد ؟ ! .. ومن أنت يا ولد ؟ ! .. أتريد أن توقع بينى وبين أخى ؟ بنت عمك تدعوك لستر عارها فتقول لا أريد ؟ ! .. من أنت يا ولد ؟ .. هه ؟ .. أبى رحمه الله تزوج من أربع نساء لمجرد إعالتهم وحمايتهم بعد موت أزواجهن .. لم تكن واحدة منهن فى موقف كموقف بنت عمك .. انت تخالفنى ؟ ! .. أنت ؟ .. أنت يا ولد ؟ !

فقاطعته قائلا :

— لكن يا أبى ..

فصاح فى حدة وغضبه يشتد وقد هم بالوقوف :

— أمك طالق ان لم تتزوج من بنت عمك .. طالق .. أفهمت يا ابن أمك ؟ !  
ثم التفت ناحية أمى التى تركتنا ووقفت بعيدا .. فصاح بها :

— أخرجى يا امرأة من بيتى !

ثم تقدم نحو الباب الخارجى وصاح قائلا :

— لا أريد أن أرى أحدا منكم ببيتى عندما أعود !  
وصفق الباب خلفه حتى كاد أن ينخلع



لبثت واقفا فى مكانى برهة كبيرة دون أن أدري ان كان هذا الذى يحدث أمامى حلما مزعجا .. أم هى حقيقة واقعة ؟ .. لست أدري كم مر من الوقت قبل أن أفيق لى نفسى وأتبين حقيقة ما حدث .. شعرت بأنها حقيقة واقعة عندما بدأ بعض الجيران من أبناء القبيلة يتوافدون على البيت .. بعد سماعهم للخبر الذى



انتشر فى النجع انتشار النار فى الهشيم .. بانوا كلهم يتمتمون  
بعبارات تنم عن الأسى والهلع والرثاء .

- نطلب من الله اللطف .

- ربنا يجعلها سلامات

- حسد .. والله حسد !

- لماذا كل هذا يا ناس ؟

- العين تفلق الحجر

- ربنا يحفظنا ..

ووسط هذه الأصوات .. مرقت أمى خارجة الى بيت أهلها  
دون أن يعترض طريقها أحد .. وعندما أصبحت قبالتى وجهت الى  
نظرة عاتبة قرأت فيها كل ما أرادت أن تقوله لى .. فسرت فى  
جسدى قشعريرة خيل الى أن شعر رأسى قد وقف لها .. فجلست  
على السرير الذى تركه أبى منذ قليل .. ورحت أدخن فى شراهة  
.. وسيل الوافدين لا ينقطع وكل عباراتهم لا تخرج عن عبارات  
سابقهم .. وتمنيت أن تهب على الدنيا عاصفة هوجاء فلا تبقى  
منها ولا تذر .. وان تعقب العاصفة سلسلة من الصواعق والزلازل  
والبراكين ويطبق بعدها الظلام على العالمين !

ومع الوافدين دخل حسب الله بقامته الفارعة وتقاطيع وجهه  
تشعر الناظر اليه بالارتياح .. تطل منه ابتسامة عريضة حانية ..  
قال يخاطب الموجودين ضاحكا :

- كنت أعرف انه لابد أن يحدث فى قبيلتنا شئ !

ثم أردف موضحا :

- الناس حسدونا .. ألم تشاهدوا صفوفنا فى يوم البراطيم

وكأنها صفوف عساكر الترك :

وتطلعت اليه الأعين فى اعجاب واجلال .. فخاطبهم قائلا

وما زالت ابتسامته العريضة عالقة بشفتيه :

- اتركونى مع ابن عمى .. واذهبوا الى حالكم !  
ونظر الواقفون بعضهم الى بعض فى تردد بين الخروج أو  
الوقوف وانتظار ما سيكون .. فخرج البعض وظل البعض الآخر  
واقفا .

واقترب منى حسب الله وهمس :

- قم معى .

قلت فى شبه اعياء :

- الى أين ؟

فحنى قامته ليكون صوته أكثر همسا وقال :

- قم .. وستعرف .

قلت وأنا أشد ما أكون زهدا فى الكلام :

- دعنى الآن .

قال فى حنان :

- أرجوك !

ثم أردف :

- سنذهب عندى فى البيت .

قلت وأنا أحاول أن يكون صوتى طبيعيا :

- لا أريد أن أتحرك الآن .. أشكرك .

قال فى عتاب :

- عيب .. نحن أولاد عم .. بيتى بيتك .

ثم وضع يده فى يدى وشدها برفق وقال :

- قم معى .. قم والله .

وتدخل أكثر الموجودين الذين سمعوا حوارنا .. واختلطت

أصواتهم :

- قم مع ابن عمك .

- أتكسف حسب الله ؟

- زينة القبيلة يكلمك يا مصطفى !  
 - النى يكلمك نفديه برقابنا .. أترد طلبه ؟  
 ثم تدخل عم عبد الله وحسيم الموقف بقوله :  
 - على الطلاق الا قمت معه !  
 وتعالى الأصوات فى استنكار :  
 - الرجل طلق !  
 - هل تريد لطلاقه أن يقع ؟  
 - كلنا نرجوك وأنت صامت لا ترد ؟  
 وذهبت مع حسب الله ..  
 كنت أعرف أننى لابد لى من مغادرة البيت .. سواء مع  
 حسب الله أو مع غيره .. فأنا مطرود الآن .. وكل هؤلاء الذين  
 جاءوا يرجوننى أن أذهب مع حسب الله يعرفون انه لابد لى من  
 مغادرة البيت .. لكنهم اعتادوا - بالغريزة - ألا يشعروا المرء  
 بهوانه .. لا سيما ان كان فى مثل موقفى .. بل بالعكس ..  
 يتصرفون أمامه بكل ما يرضى كبريائه ويشعروه بأهميته .. قومي  
 يتصرفون - أحيانا - كما لو كانوا يعيشون فى أرقب المجتمعات  
 الانسانية !

\*\*\*

قرع حسب الله باب بيته بعصا صغيرة يحملها قرعات خفيفة  
 لها لحن يميزه كل من فى داخل البيت كشأن أكثر بيوت القرية .  
 وما لبث أن فتح الباب وأطل منه غلام صغير فى التاسعة من  
 عمره .. أسمر اللون .. دقيق ملامح الوجه .. شديد الشبه  
 بحسب الله ..  
 ابتسم الغلام لمراآنا فنمت ابتسامته عن أسنان بيضاء جميلة .  
 التنسيق زادت سمرة وجهه من جمالها .

خاطبه حسب الله وهو يشير الى :

- عمك مصطفى .. سلم عليه .

فتقدم منى الغلام وصافحني بحرارة مقلدا الكبار في شد يدي وهزها .. ثم راح يتطلع الى في اعجاب وسرور .. على اساس انني اختلف - في نظره - عن غيري لانني قادم من ذلك البلد الجميل البعيد الذي يتردد اسمه كثيرا على الأفواه .  
وأخرجه أبوه من أحلامه بقوله :

- جهزوا لنا العشاء .

فسبقنا الغلام الى الداخل مهرولا وهو يكاد يطير من الفرح ..  
وتبعه حسب الله .. وبعد لحظات اذن لي في الدخول .

كان بيت حسب الله يتكون من فناء واسع تتوسطه نخلة عالية .. وفي الجهة الغربية منه قامت ثلاث حجرات واسعة داخل كل حجرة .. حجرة أخرى .. هذه الحجرات تستعمل للمبيت في الشتاء .. وعلى طول الجدار الجنوبي ارتفعت سقيفة أمامها أربعة أعمدة روعى فيها أن تكون أعلى من ارتفاع البيت كله بحوالى نصف المتر لتتصيد كل نسمة مارة في فصل الصيف .. وفي آخر السقيفة .. في الطرف الشرقي للجدار الجنوبي قامت حجرة المطبخ .. أو حجرة ( الموقد ) - كما يسمونها .. وعلى غير بعيد منها وقفت ثلاث صوامع للغلل واحدة كبيرة واثنان صغيرتان .. وبجوار آخر صومعة قبع برج للحمام ارتفاعه حوالى المترين .. وقف على بابه ذكر من الحمام علا هديله بطريقة بدت فيها نبرة الغضب فلم أدر أهو يغازل زوجته التى وقفت مستكينة بجواره أم أنه يرمى عليها يمين الطلاق !

وفي الجدار الشمالى .. الذى تقع فيه البوابة الكبيرة .. قامت حجرة مستطيلة لها بابان .. أحدهما يفضى الى الخارج فى محاذاة البوابة الكبيرة .. والآخر - وهو صغير - يفضى الى داخل البيت ..

وهذه الحجرة هي ( الديوان ) التى توجد فى أكثر بيوت القرية وتقوم مقام حجرة الاستقبال للضيوف الخصوصيين .

وعلى الرغم من أن البيت كله من الطوب النيىء . . إلا أنه كان بالغ النظافة شأن غالبية بيوت القرية . . وقومى يتمسكون بالطوب النيىء ويستخدمونه أيضا فى عمل أقبية لسقف البيوت لعزله حرارة أسوان الشديدة فى الصيف . . حتى أنك لتدخل الحجرة فى الصيف القائن فتحس بجوها البارد . . فإذا دخلتها فى الشتاء شعرت بالدفء وكأنها مكيفة الهواء !



جاء الغلام ب ( برش ) مصنوعة من سعف النخيل - ناصعة البياض وفرشها لنا تحت السقيفة . . ثم أتى بمسندين صغيرين وضعهما على ( البرش ) وأسندهما على الجدار .

كانت الشمس قد بدأت فى المغيب وزقزقة العصافير تملأ الجو وهى تأوى الى أعشاشها فى الكرم القريب . . وقد تعمد حسب الله أن يدخلنى من الباب الكبير وليس الى ( الديوان ) كى يشعرنى باننى ابن عمه ولست ضيفا . . وأبناء القبيلة الواحدة يتعاملون على أساس أنهم أبناء عم على الرغم من أن بعضهم لا يلتقون نسبيا الا فى الجدة العاشر !

جلسنا تحت السقيفة نحتسى الشاي المخلوط بأعشاب ( حلف البر ) ذات النكهة الشبيهة بالنعناع . . وحسب الله يتحدث فى كل شىء الا فى الموضوع الذى يشغل بالى . . كل ما قاله عنه كلمة عابرة هى :

- لا تغضب . . كل شىء سيعود الى حاله .

ثم راح يتحدث فى شتى الموضوعات وقد راعى أن تكون أكثرها فكاهية .

نادى ابنه فى مرج :

— حامد ..

وبنا جاء الغلام أجلسه بجوارنا وقال له باسم :

— عد جدودك .

فتربع الغلام وكأنه يقرأ سورة من القرآن وقال فى سرعة :

— حامد هذا حسب الله .. مكى .. صالح .. ضوى ..

حسين .. محمّد .. مرعى .. عواض .. شedad .. عامر .

فاستوقف ابنه وقال له :

— ماذا كان يفعل جدك عامر ؟

قال الغلام فى ثقة :

— كان يحارب الكفار !

فقال له :

— أكمل .

ومضى الغلام فى سرد أجداده .

— خليفة .. عبد الله .. الأمير نجم الدين .

وسكت الغلام .. وسأله حسب الله :

— الأمير نجم الدين .. ماذا كان يفعل ؟

قال الغلام فى سرعة :

— كان يحكم قنا وأسوان وبلاد النوبة !

ثم خاطب الغلام ضاحكا :

— تريد أن تكون مثل من يا حامد ؟

فرد الغلام فى ابتهاج وهو يشير الى :

— مثل عمى مصطفى !

فقهقه حسب الله وقال :

— لا .. أقصد فى جدودك ؟

قال الغلام وهو ينظر الى وكأنه يعتذر :

— مثل جدى عواض .



سأله حسب الله وكأنه يمتحنه :  
- لماذا ؟

- لأن الكفار لما قتلوا واحدا من قبيلتنا .. ركب الفرس وقتل  
رئيس الكفار وأحضر رأسه فى المخلاة !  
وسأله حسب الله :  
- وأين دفن رأسه ؟  
قال الغلام :  
- فى خيمتنا !

ومضى حسب الله فى حكاياته الفكاهية .. ينتهى من واحدة  
ليدخل فى أخرى ترى .. لماذا تعمد هذا ؟  
أبلغت به الرقة بحيث أبى ان يجرح شعورى بطرق أهم  
ما يشغل بالى الآن ؟ .. ومن أين لمثله الرقة وهو الذى اكتسب  
أهميته وشهرته فى القبيلة من تنظيمها للقتال وخوض المعارك ؟ ..  
هل يمكن ان يجمع الانسان بين النقيضين ؟ .. بين القسوة التى  
تتطلبها مواقف المعارك .. وبين الرقة التى تصل الى الحد الذى يجعله  
يتردد فى خدش شعور انسان .. مجرد خدش ؟  
ها هو حسب الله مثال حى امامى يثبت جمع الانسان  
للقيضين .

اذن .. فحسب الله متعدد الجوانب .. له جانبه الصارم  
الذى يخيل لمن يلمسه ان صاحبه لم يسمع بشيء اسمه ( الرحمة )  
.. وله جانبه الرقيق الذى يخيل لمن يراه أن صاحبه لا يجرؤ -  
لفرط رفته - على ذبح دجاجة ! .

أمن أجل جمع حسب الله لهذين الجانبين يحبه أبناء القبيلة  
حبا يقرب من العبادة ؟ .. يرون فيه ( القائد ) المظفر الذى يدافع  
عن عزتهم وشرفهم بجانب ما يلقونه منه من تعاطف وحنان فى  
معاملاتهم واحاديثهم معه ؟

حقاً .. لقد نال حسب الله هذه الحظوة لانه جمع بين الجانبين المتناقضين .

هو ليس كبير القبيلة ولا شيخها ولا أكثرها مالا .. لكن له فيها من النفوذ ما لو استخدمه لكان زعيمها وشيخها وكل شيء فيها !  
أنا شخصيا أحب حسب الله منذ نعومة أظفاري .. كنت وأنا صغير أنظر اليه فأرى قامته المديدة المنصوبة كالرمح .. وصدره العريض .. وملامح وجهه السمراء المتناسقة .. فيبدو لي كأحد تماثيل الفراعنة الموجود في ( البربة ) على الشاطئ الآخر من النيل .. وتجسمت هذه الصورة في مخيلتي مع الأيام نتيجة للهالة التي أحاطها به أبناء قبيلتنا لما برع في الخطط (الحربية) التي أحرز بها الكثير من الانتصارات ( العسكرية ) للقبيلة .. وازداد حبي له لادبه الجم أثناء مخاطبته لكبار السن من شيوخ القبيلة فكان يخاطبهم - في أوقات السلم - خافض الصوت .. غاض البصر .

لقد تركت القرية .. وكبرت .. ودرست .. وتثقت .. وخالطت الكثير من الأجناس .. انجليز .. وفرنسيين .. واغريق .. وكل شيء تغير في نظري الا حسب الله .. صورته هي هي .. واعجابي به وحبي له هو هو لم تغير منه الأيام شيئاً !  
تري .. هل أشكو لحسب الله ما بى ؟  
هل يقتنع برأىي اذا ما بدأت معه النقاش ؟

\*\*\*

أنا واثق بأن حسب الله اذا اقتنع برأىي .. وأحس بما يدور بداخلي بنفس الاحساس الذي يحس به الشاب المثقف الذي يسكن المدينة .. لو أحس حسب الله بهذا واقتنع به لتغير كل شيء في حياتي بين يوم وليلة !

حسب الله - على الرغم من انه لا يتدخل فى شئون القبيلة  
خلاف شئون ( الحرب ) - نافذ رأى .. قوى الحجة .. مسموع  
الكلمة .. اذا ما حدث اجتماع هام وحضرته الشخصيات الكبيرة من  
شيوخ القبيلة .. واحتد النقاش .. وعلا الضجيج .. جلس  
حسب الله صامتا طول الوقت .. فاذا ما نطق ليبدى رأيه - وغالبا  
ما يكون صوته خفيا - سكت الصياح .. وصمت الجميع ..  
واشرأبت اليه الاعناق .

وما ان ينطق حتى تتعالى صيحات التأييد وما يلبث رايه ان  
يكتسح كل رأى وكأنه القول الفصل ! .

حسب الله - وحده - يستطيع ان يخرجنى من حيرتى .. وهو  
الوحيد الذى فى يده بث الطمأنينة الى قلب ( نادية ) ! .  
لكن حسب الله لا يسعى لأمر الا اذا اقتنع به .. مهما كان هذا  
الأمر .. فكيف السبيل الى اقناعه ؟

هل أستطيع أن أزيح القرون الطويلة من العادات والتقاليد  
وأن أصل الى عقله وأقنعه بموقفى ؟  
ياليت !

ليتك يا حسب الله .. يا من أحبك وأعجب بك لم تولد فى  
هذا المكان ! ..

ليتك نلت حظا - ولو قليلا - من التعليم وغادرت القرية الى  
مدينة كبيرة وعشت فيها ولو لسنوات قليلة خالطت فيها أسرته  
الكبيرة من أبناء وطنك واحتككت ببعض الأجناس الأخرى .. لو  
حدث هذا لكان لى معك شأن آخر اليوم .. لكن .. وا أسفاه .



## الفصل الثامن

عندما حان موعد العشاء كان الغلام - ابن حسب الله - شعلة من نشاط .. احضر طستًا صغيرًا وابريقًا لامعًا به ماء وضعهما على غير بعيد منا تحت أحد الأعمدة .. وحمل على كتفه فوطه نظيفة .. واحضر فانوسًا على مسمار مثبت في العمود .. وظل يتردد على ( الموقد ) بين كل لحظة وأخرى ثم وقف قبالتنا وصاح على طريقة حاجب المحكمة :

- العشاء جاهز

ونفض حسب الله مستأذنا وغاب في ( الموقد ) قليلا .. ثم عاد يحمل على راحته صينية نحاسية كبيرة غطيت بـ ( وليل ) كبير مصنوع من الخوص له ألوان زاهية .. وضع الصينية على ( البرش ) والتفت ناحية ابنه قائلا :

- الغسيل يا حامد

ووضع الغلام الطست بجوار ( البرش ) ثم عاد بالابريق ليقول لي مبتسما :

- اغسل يا عم مصطفى ..

وصب الماء على يدي ثم ناولني الفوطه .. وغسل حسب الله يديه وحذا الغلام حذوه .. وجلسنا ثلاثتنا نتناول طعام العشاء .. كان العشاء مكونا من زوج من الحمام المحشو بالأرز حتى بدت كل واحدة أكبر من حجمها مرتين .. وضعتا في طبق صغير ..

وفى وسط الصينية وضع طبق كبير امتلأ بال ( سخينه ) - الطبق،  
الأسوانى المفضل - المصنوع من البصل المفري بالسمن والطماطم  
والكثير من التوابل . وداخل السخينة ظهرت طلائع أوراك بدأ  
واضحاً انها اجزاء دجاجة سمينة أو بطة .

ولما انتهينا من الطعام رفع حسب الله يديه الى السماء وقال :  
- الفاتحة لأموالتنا وأموات المسلمين .

وبما ان فرغنا من الفاتحة حتى صاح فى ابنه :  
- افتح الديوان يا جامد

وانتقلنا الى الديوان لفضاء السهرة ثم المبيت وان كانت  
السهرة لا تمتد لأكثر من التاسعة مساء باى حال .

كان بالديوان أربعة أسرة من الحبال على كل سرير بساط فى  
مثل حجمه ومسندان . وفى وسط الديوان قامت مائدة مصنوعة  
بطريقة بدائية . وفى أحد الأركان مائدة أخرى أكبر من الاولى  
وضعت عليها عدة ألحفة لاتستعمل لغير الضيوف . وبجوار الالحفة  
عدة ( بروش ) طويت واستندت الى الركن .

نفض الغلام السرير الذى سأنام عليه وجاء بلحافين فرش  
أحدهما فوق البساط بعد ان ثناه . وطوى الآخر فوق طرف  
السرير لاستعمله كغطاء . اذا أردت . وفى مثل ذلك بسرير  
أبيه ثم تركنا مهرولا ايعود يحمل صينية صغيرة عليها أكواب  
الشاي .

وفجأة قال لى حسب الله :

- الجماعة ( يقصد القبيلة ) عندهم اجتماع الليلة . هل

تأتى معى ؟

قلت :

- ولم الاجتماع ؟

قال :

— سيعملوا ( فردة ) لاحضار ( فرش ) للخيمة

وتذكرت ان أبى سيكون هناك .. فقلت :

— لن أذهب .. سأنام

قال ضاحكا وقد لاحظ سبب تمنعى :

— من الآن ؟ .. تعال كى تدفع نصيبك فى ( الفردة )

قلت :

— أدفعه لك .. وأنت تدفعه نيابة عنى

قال وهو يهم بالوقوف ويناولنى عصا صغيرة لأحملها معى :

— هذا الكلام لاينفع .. نحن لم نعرف كم سيدفع الواحد

ثم فتح باب الديوان المفضى الى الخارج ومد يده الى الأمام

— تفضل

\*\*\*

كان أبناء القبيلة يشوافدون على الخيمة اثنين اثنين وثلاثة

ثلاثة .. وراحوا يتخذون أماكنهم فى المبنى الداخلى على الأبسطة

المفروشة على ( البروش ) .. وقد أشعلوا ( كلوبين ) وضعوا كلا

منهما على نافذة مطلة على السقيفة .. وبين كل لحظة وأخرى يقوم أحد

الشبان ليعطى الكلوبات ( نفسا ) . وفى صدر المجلس جلس شاب

أمسك فى يده كراسة أسندوها على ركبته وراح يدون فيها أسماء أبناء

القبيلة .. تقدم حسب الله منه وجلس بجواره وأفسح لى مكانا

بجانبه .. ثم سأل الشاب فى همس :

— انتهيت ؟

قال الشاب دون أن يرفع رأسه :



- لم يبق إلا النواصر ( فرع من قبيلتنا )  
 فابتسم حسب الله وقال في مزاح :  
 - النواصر دائما متأخرون .. حتى في الكتابة ؟  
 فسمعه عم عبد الله - وهو من النواصر - فقال :  
 - مالهم النواصر ؟  
 قال حسب الله يشرح له الأمر :  
 - لم يكتبوا بعد  
 فوقف عم عبد الله على ركبتيه وخاطب الشاب الذي يكتب  
 قائلاً :  
 - ولماذا تترك النواصر للآخر ؟ .. انتم من غير النواصر هل  
 تساوون بصله ؟  
 فرد عليه الشاب دون أن يرفع رأسه من الكتابة :  
 - لا تشغلنا .. نحن عارفون !  
 فعاد عم عبد الله الى جلسته الأولى وهو يقول :  
 - ما دمتم قد اعترفتم .. فلا داعي لسحب الثبوت !  
 ودخل أبى مع الوافدين وبصحبته عمى عبد الرحمن .. وراح كل  
 جماعة يتحادثون معا وقد شغلوا عن غيرهم .. ودارت على الجميع  
 أكواب الشاي بواسطة الغلمان الصغار .. ورفع الشاب رأسه وقال  
 لحسب الله في همس :  
 - انتهيت  
 فسأله حسب الله :  
 - كم العدد ؟  
 قال الشاب :  
 - مائة وثلاثة وعشرون



قال حسب الله متسائلا :  
 - لماذا ؟ .. هل تركت أحد ؟  
 قال الشاب :  
 - لم أكتب الأولاد .. ولا أبناء البنات .. ولا المسافرين  
 فكر حسب الله قليلا وقال :  
 - لا داعى لكتابتهم .. الأمر بسيط  
 واعتدل حسب الله فى جلسته .. وصفق بيديه لينتبه اليه  
 الجميع والتفت الى الناحية التى يجلس فيها ابى وقال :  
 - كتبنا الأسماء يا جماعه !  
 فرد عليه ابى دون ان يتقدم منا لما رآنى اجلس بجوار  
 حسب الله :  
 - اكتب المصاريف يا حسب الله  
 فرفع حسب الله يديه وقال :  
 - الفاتحة بالتوفيق  
 وارتفعت الأكف تقرأ الفاتحة .. وراح حسب الله يملأ على  
 الشاب وقد انصت الجميع :  
 - اكتب .. عشرين جنيها سجادا .. خمسة جنيهاً مساند  
 .. جنيهاً ( بروش ) .. جنيهاً كبايات وصواني للقهوة ..  
 خمسة جنيهاً واجب العباداة  
 ومضى الشاب فى الكتابة .. وسألت حسب الله فى همس :  
 - مالهم العباداة ؟  
 قال فى بصوت خفيض :  
 - عندهم ميت .. سينشترى لهم ذبيحة وغلة !  
 ثم التفت ناحية الشاب وقال له :

- احسب النقود .. كم يدفع الواحد ؟  
واستغرق الشاب في الجمع والطرح ولم يلبث ان رفع رأسه  
وقال :

- سبعة وعشرون قرشا  
فخاطب حسب الله الجميع بقوله :  
- هاتوا يا جماعة ( الفردة ) .. كل واحد سبعة وعشرون  
قرشا .

وبدءوا يدفعون النقود لحسب الله .. وحسب الله يملأ على  
الشاب :

- فلان دفع .. أكتبه خالص  
فلان دفع خمسة وعشرين .. اكتب عليه قرشين  
وفجأة قال ابي لحسب الله بعد أن انتهى أكثرهم من الدفع :  
- لكنكم نسيتم ثمن الكلوب الجديد ؟  
ضرب حسب الله جبهته بيده وقال :  
- اين ذهب عقلنا ؟

ثم نقل بصره بين ابي وبين الكراسية في حيرة وقال متسائلا :  
- هل تغير النظام كله ؟!

فرد عليه الشاب الذي يكتب في اعياء :  
- لا أستطيع ان اغير كل ماكتبته .. لنؤجل ذلك الى الغد !  
فقلت لحسب الله :

- لم لا يتبرع أحدهم بثمان الكلوب .. وينتهي الأمر ؟  
فنظر الى حسب الله في دهشة وقال :

- يتبرع ؟ .. هل تريد ان تدخلنا في مشكله ؟ .. من  
يوافق ؟

هنا وقف عم عبد الله على ركبتيه وتساءل :  
- كم ثمن الكلوب ؟  
فرد عليه حسب الله  
- أربعة جنيهاً

قال عم عبد الله  
- طبعاً ستعملون فردة جديدة وندفع فلوساً جديدة ؟  
قال حسب الله :  
- طبعاً !

قال عم عبد الله بأعلى صوته :  
- لقد اقترضت الربع جنيه الذى دفعته بطلوع الروح ..  
ثم أَدفع مرة أخرى ؟ .. على الإطلاق ما أَدفع !  
وقهقهت الخيمة كلها

وقال له عمى عبد الرحمن وهو يهم بالوقوف :  
- والله العظيم سبع ابن سبع !  
ثم تقدم عمى من حسب الله وقال له بصوت هامس :  
- كم المبلغ المتبقى ؟

قال حسب الله  
- أربعة جنيهاً  
فناولهُ ورقة من فئة النصف جنيه وورقة من فئة الخمسة  
قروش وقائ :  
- اكتب فى الكشف احمد وياسين وعبد الباسط ( أولاده

الأطفال )

فتناول حسب الله النقود وقال :  
- ربنا يحفظ .. وانا سأكتب حامد ( ابنه )

وما هي الا لحظات حتى جمع المبلغ من عدة أشخاص كتبوا  
أطفالهم الصغار .. وصاح صوت من ركن الخيمة :

— من الذين سيذهبون الى ( معتر ) العباددة ؟

فرد أبى قائلا :

— اختاروا لكم خمسة أو ستة .. اما انا فمتعب ..  
حسب الله مكاني !

حسب الله مكانك ؟ .. كان يجب ان أكون أنا مكانك ! ..  
وتطلعت الأعين ناحيتي بطريقة لا ارادية .. وشعرت بالحبيل ..  
لكن حسب الله نظر ناحيتي وقال :

— وانا وكلت مصطفى مكاني !

فصاح عم عبد الله دون ان يفتن الى مغزي حسب الله :  
— والله عال .. مصطفى أيضا يبحث عن واحد يوكله .. لم  
لا تذهب أنت ومصطفى ؟

فقال حسب الله وهو ينظر ناحيتي ويبتسم :

— وهو كذلك !

وبعد بضع دقائق استقر الرأي على خمسة أشخاص يذهبون  
غدا لتغزية العباددة .. كان من بينهم حسب الله وعم عبد الله وانا

وصاح صوت من طرف الخيمة والجميع يهمون بالانصراف :

— الفاتحة .

\*\*\*

## الفصل التاسع

كانت الشمس ترسل إشعتها الذهبية فتشيع الدفء في جو الصباح البارد عندما اقتربنا من شاطئ النيل .. وخاضت بنا ( الركائب ) في الماء قليلا .. واقتربت من المركب التي ستقلنا الى الشاطئ الآخر .. وكانت الحمارة التي أركبها هي حمارة حسب الله .. ووضع عليها السرج ووضعت فوقه ( فروة ) سوداء من جلد الخراف .. تدلى طرفاها على جانبي السرج حتى كادا يلامسا الأرض .. سارت بي في الماء قليلا ولما اقتربت من المركب استدارت حتى لامس جنبها حافة المركب .. ووضعت قدمي على المركب .. وما أن خلصت قدمي الأخرى من السرج حتى قفزت الحمارة الى المركب في مهارة فائقة .. ونزل الباكون بنفس الطريقة .. وكان حسب الله يحمل معه كيسا قد امتلأ بالقمح وضعه تحته فوق السرج .. بينما حمل أحد الرجلين الآخرين خروفا وضعه أمامه فوق طرف السرج وقد ربطت أرجله كل رجلين معا .. وكان واضحا أن عم عبد الله هو الذي يتزعم الوفد لأنه يكبر الجميع سنا .

ولما أصبحت المركب في منتصف النيل .. أخرج عم عبد الله علبة ( المدغة ) وتناول منها ما وضعه في فمه .. ثم أشار الى مبنى أثرى يقف على النيل في الشاطئ المواجه لجزيرتنا وقال لي :

— هل رأيت تماثيل الكفار في هذه ( البربة ) ؟

قلت :

— نعم .



قال

— جدنا الشيخ ( عامر ) هو الذى سخطهم ..  
ولما كنت أعرف أن الشيخ عامر هو احد أولياء الله وله مقام  
معروف فى شاطئ آخر .. سألته :  
— سخطهم ؟ .. كيف ؟ ..

قال لى وهو يبحث فى جيوبة عن قطعة ( عطرون ) ليضعها فى  
فمه مع ( المدقة ) :

— جاءوا يجاربونه .. وكان ساعتها يصلى .. فلما فرغ من  
صلاته ورآهم .. أشار بيده دون أن يتحرك من مجلسه ..  
فانسخطوا فى أماكنهم وتحولوا الى حجارة !  
قلت :  
— لكن ؟

وترددت فى معارضضته .. فمد عنقه الى الأمام وتحفز فى  
جلسته وقال :  
— لكن ماذا ؟  
قلت :

— هذه البربة عمرها أربعة آلاف سنة .. وجدنا الشيخ عامر  
لم يمض على وفاته أكثر من بضـع مئات من السنين .. فما الذى  
جمعهم به ؟

فضرب عم عبد الله كفيه والتفت ناحية الصحاب وقال :  
— انا لا يغيظنى من الأولاد الذين يذهبون الى المدارس الا هذا  
الكلام الفارغ !

ثم بصق فى انفعال وقال :  
— من أجل هذا منعت ابنى الكبير من المدرسة .. لكيلا يفسدوا  
عقله !

ثم استعد لافحامى قائلا :  
— لو أنك نظرت الى واحد من المسخوطين .. وتأملت عينيه  
وفشفتيه وأنفه .. لخیل لك انه انسان ولكنه انسخط ؟  
فرد أحد الرجال فى ایمان :  
— طبعا

فقال عم عبد الله فى لهجة المنتصر :  
— قل لمصطفى الذى يريد ان يعلمنا التواريخ !  
ووقفت بنا المركب على بعد عدة امتار من الشاطئ .. فقفزت  
الحمارة الى الماء .. ثم استدارت من تلقاء نفسها .. والتصقت  
بالمركب حتى كاد انسرج يلامس المركب .. فجلست على السرج  
فى سهولة .. واجتازت بى المسافة القليلة من الماء .. وسرنا  
يتقدمنا عم عبد الله فى طريق يضرب فى اعماق الصحراء حيث يرقده  
نجع العباددة .. وقال لى عم عبد الله :  
— جدة العباددة .. اخت جدنا !

فسأله حسب الله :  
— هل هى اخته شقيقته يا شيخ عبد الله ؟  
فرد عليه فى سرعة :  
— نعم .. هى وجدنا من أم واحدة .. انجبهم جدنا الكبير من  
زوجته النوبية !

ثم التفت عم عبد الله ناحيتى وقال فى لهجة المفاخر :  
— جدتنا الكبيرة .. كانت بنت ملك النوبة !  
ثم اشار الى الجنوب والهواء يتلاعب بكم زعبوطه الواسع :  
— ملك النوبة خاف من جدنا الكبير الأمير نجم الدين ..  
لئلا يحتل بلاده .. فصادقه وزوجه من ابنته !  
وتأمل حسب الله كم الزعبوط وقال يسأله :  
— هذا الزعبوط .. جديد ؟

قال عم عبد الله وهو يضحك :

.. من اين ؟ .. هذا استعرتة من الشيخ علوان الكباني ..  
زعبوطي قديم ؟

وبعد مسيرتنا بساعتين تقريبا .. لاح من بعيد نجع العباددة  
الذى يرقد وحده فى بطن الصحراء .. فوقف عم عبد الله حمارته  
ونزل منها وهو يقول :

- اصلحوا من شأنكم

ونزلنا جميعا ورحنا ننفض الغبار من زعابيبطنا .. ونعيد لف  
العمائم من جديد .. ثم أمسك عم عبد الله بشاله الأبيض العريض  
.. فلف نصفه فوق العمامة وترك النصف الآخر يتدلى وراء عنقه  
.. واستأنفنا السير ..

وقبل أن نصل الى خيمة العباددة بمسافة كبيرة .. هرول  
نحونا عدة غلمان أمسك كل منهم برقبة احدى الحمير .. فنزلنا  
وتركناها لهم .. وأشار عم عبد الله الى الخروف والغلة وخاطب  
أحدهم :

- خذ الحاجات ..

ودخلنا الخيمة التى رصت الكثير من الألحفة على سورها الخارجى  
دلالة على أنهم يبيتون فيها فى أيام ( المحصر ) .. وما ان لمحنا  
العباددة حتى وقفوا لنا .. وتقدمنا عم عبد الله وقال بطريقة تقليدية  
تشبه الخطابة :

- هكذا حال الدنيا ..

فجاوبته أصوات الموجودين فى نغمة واحدة :

- سبحان الحى البدائم

وصافحنا عدة أشخاص من المقربين الى المتوفى .. وجلسنا

على السجاد المفروش على الأرض .. ورفع عم عبد الله يديه وقال :  
- الفاتحة

ولما انتهينا من الفاتحة تقدم منا الكثيرون يضاحقوننا وكانوا  
يخاطبون عم عبد الله وحسب الله باسميهما .. وسأل أحدهم :  
- أين الشيخ عثمان ؟

فأشار عم عبد الله ناحيتي وقال :

- مريض .. أرسل ابنه ..

وتعالت الأصوات .. بينما اتجهت الأنظار ناحيتي :  
- سلامته

- ما شاء الله

- من خلف ما مات

- سلموا لنا عليه

ثم مضوا يسألون عن شيوخ قبيلتنا المغروفين لهم وقال أحد  
شيوخهم يخاطبنا :

- كيف لم تخبرونا بمشاكلتكم مع البراطيين ؟

فقال عم عبد الله في سرور :

- بارك الله فيكم .. لم تكن (شكلة) .. انتهت على خير ..  
فقال الشيخ :

- استعدينا هنا .. لكن قالوا لنا لم يحدث شيء ..

ثم قال شيخ آخر في حماسة :

- نبايبتنا صدأت من قلة القتال ..

فرد عم عبد الله :

- تسلموا .. تسلموا ..

وفجأة وقف أحد شيوخ العبايدة واتجه ناحية الباب الخارجى

فصاح فيه عم عبد الله :

- الى أين ؟  
 فتوقف الشيخ وقال :  
 - سأعود حالا ..  
 لكن عم عبد الله صاح فيه  
 - لا وقت عندنا لما تريده .. سنأكل من الموجود ..  
 قال الشيخ وهو يهم بالخروج :  
 - لا بد من ذلك ..  
 فصاح عم عبد الله :  
 - ارجع .. على الطلاق ترجع ..  
 فتدخل شيخ آخر وخاطب عم عبد الله قائلا :  
 - كبرت وعجزت ... وما زلت فى طلاقائك ؟  
 قال عم عبد الله وهو يضحك :  
 - أنا أموت ان لم أطلق ..  
 فقال الشيخ وهو يشير للشيخ الأول يأمره بالخروج :  
 - اذهب واذبح لهم .. طلاق عبد الله أمره سهل ..  
 فصاح عم عبد الله :  
 - كيف ؟ .. أنا طلاقى سهل ؟  
 قال الشيخ وكان الآخر قد خرج فعلا :  
 - أنا أعرفك .. ثم أننا لن نذبح لك أنت .. نحن نعمل قيمة  
 خيمتنا ..  
 ثم قال مستدركا .. وهو يشير ناحيتنا :  
 - وقيمة مشايخ العرب ..  
 ومضى كل جماعة يتحادثون معا فى ود .. وقد تخللت  
 أحاديثهم الكثير من الضحكات .. وقال عم عبد الله للشيخ الذى  
 يجلس بجواره :

— كم ستمكثون على المرحوم في ( المحصر ) ؟

فرد الشيخ :

— ثلاثة شهور ..

فقال عم عبد الله في انزعاج :

— فقط ؟ .. لقد استمر ( محصر ) أبية ستة أشهر .. فهل

المرحوم أقل من أبية ؟

فأشار الشيخ الى عدة رجال من قومه يصغرونه سنا وقال :

— قلت هذا الكلام .. لكن جيل اليوم لا يهتم .

فهز عم عبد الله رأسه وقال في استياء :

— لا .. لا .. هذا كلام فارغ .. هذا رجل معروف في كل

البلاد .. شيخ العرب ابن شيخ العرب .. لولا أبوه لما استطاعت

العربان أن تصمد أمام الترك وظلمهم .. حتى الانجليز أولاد الكلب

كانوا يخافون منه !! .. هل انقلب الزمن يا خبراء الجبال ؟

ثم التفت عم عبد الله ناحيتنا وقال لنا يشرح مكانة والده

المتوفى :

— كان مرة يركب حصانه ويسير مع قائد الانجليز الكبير ..

فنادى عليه عبادى حافى القدمين .. من عابدة الجبل .. فنزل من

حصانه وعانقه ووقف يكلمه أكثر من ساعة .. وغضب قائد الانجليز

.. وقال له كيف تتركنى واقفا من أجل هذا العبادى الحقير ؟ ..

فقال له : اسمع يا انجليزى .. انا سأقول لك بيتين من الشعر

وافسرهم لك بالانجليزى :

« كلام الحبسايب بلح بل

يا جيک کالتبل ماشی

شفت لك صارى بلا حبال

رخى قلعه والقماشى ؟ »

ثم فسر له الكلام بالانجليزى لأنه يعرف رطانة الانجليز وقال له :  
« كلام الحبايب مثل البلع المبتل بالماء .. ويأتيك مسرعا كالنبيل ..  
وهل رايت صارى مركب يرخى قلعه ويسير بدون جبال ؟ » .. انا  
شيخ العرب لاننى زعيم هؤلاء .. انا الصارى وهم الحبال »

ثم التفت عم عبد الله ناحية شيوخ العباددة وقال فى أسى :  
- ابن شيخ العرب ( محصره ) ثلاثة اشهر فقط ؟ القيامة  
قامت والله !

وحان موعد الغداء .. ودخل شبان العباددة يحملون  
الصوانى وقد فتت فى اطباقها خبز ( النشابى ) الأبيض الرقيق  
مثل ورقة السيجارة .. وقد غمر بالمرق ووضعت عليه طبقة خفيفة  
من الأرز .. وجلس الجميع حول الصوانى فى صفين طويلين ..  
ثم دخل رجلان من العباددة يجمل أحدهما (قدحا) - طبق كبير من  
الحشيش - الصقه بصدرة .. ووضع الآخر كلتا يديه فى الطبق  
وأنهمك فى تقطيع أجزاء الذبيحة .. ثم تقدم من الناحية التى نجلس  
فيها .. ووضع فى أطباقنا كمية كبيرة من اللحم .. ثم دار على بقية  
الجالسين من قومه فوضع أمامهم كميات اقل .

وبعد ان شربنا الشاى بقليل صاح عم عبد الله :  
- الفاتحة

وما ان انتهت الفاتحة حتى هب واقفا فوقفنا نحن ايضا  
وسرنا الى الخارج يتبعنا أكثر الموجودين وهم يرددون :  
- نأتيكم فى المسرات

\*\*\*



## الفصل العاشر

كان الوقت عصرا عندما تركنى حسب الله ليذهب الى حقله .. فوجدت نفسى وحيدا فى الديوان تهجس بى هواجس الفكر .. انا أخاف الوحدة اذا كان هناك ما يشغل بالى .. ما هى الخطورة التى يجب على أن أخطوها ؟ .. يجب أن أتصرف .. لا ينبغي أن أقف هكذا مكتوف اليدين .. هل أسافر ؟ .. أجل .. يجب أن أسافر .. ما الذى يمنعنى ؟ حقيبتى الوحيدة أمرها بسيط .. نصف محتوياتها من الكتب .. هى فى مكانها لم تمس .. يجب أن أغادر القرية فورا .. فى اسكندرية سأعيش كما أحب أن أعيش .. لا سلطان لأحد على هناك .. فلن أعيش الا مرة واحدة .. واحدة فقط .. قرأت - لا أدري أين - ان فى حياة الانسان ثلاثة أحداث .. اثنان منهما لا يد له فيهما .. والثالث متروك له فيه الاختيار .. الاحداث الثلاثة هى : المولد .. والزواج .. والموت .. الزواج فقط من حقه .. وقومى - سامحهم الله - يريدون حرمانى من حقى الوحيدة فى الاختيار .. مستحيل .. لن أعطيهم الفرصة لحرمانى .. يجب أن أسافر اليوم .. بل الآن .. وأمى ؟؟ أتركها هنا ؟ .. أتركها لمن ؟ .. أغاضبة انت منى يا أمى لأننى تسببت لك فى المتاعب ؟ .. لا تغضبى .. سأصحبك معى .. سأجعلك تعيشين كملكة .. سأفرك على الدنيا .. ستسعين كثيرا .. لا سيما اذا رأيت وجه نادية الصبوح .. وابتسامتها العذبة .. ستعاملك كأنها تماما .. ستفهمك بسرعة .. نادية مثقفة .. وعلى جانب كبير من الذكاء ..

ولها دراية بطباع الناس .. ستعلم بطباعك من أول لقاء ..  
وستسعدين بصحبتها .. لكن هل تسعدين أنت بصحبتها حقا ؟  
.. هي ستعاملك كأماها .. وانت .. هل تعاملينها كابنتك ؟ ..  
انت طيبة يا أمي .. ومحبة للخير .. ومتدينة .. لكننى أخاف من  
طبيبتك .. طبيبتك هذه هي التى ستفسد سعادتك مع نادية .. هل  
تذكرين عندما ذهبت بصحبتك الى زيارة مقام ولى الله الشيخ عامر؟ ..  
يومها رأيت سائحة اجنبية تلتقط بعض الصور .. وما ان لمحت  
فستانها القصير وساقىها العاريتين حتى هتفت فى ذعر : انظروا  
المرأة ؟ .. ثم ادخلت رأسك فى ملاءتك المصنوعة من صوف النعاج  
وقلت فى خجل : « وافضيحتى !! »

فما هو قولك اذا رأيت نادية .. زوجة ابنك !؟  
اماه ... ما هو العمل ؟



دفع حسب الله باب الديوان وقال لى فى مرح :  
- كيف ما امسيت يا ابن العم ؟  
طريقته فى الحديث أزاحت الكثير من الهم الجاثم على صدرى  
.. رددت عليه وأنا أهم بالجلوس من رقدتى :  
- مسانا وميساك بالخير يا شيخ حسب الله  
قال لى فى ود وهو يجلس بجوارى على السرير :  
- نمت ؟

قلت :

- لا .. لم استطع

قال فى أسى :

— لماذا ؟ .. تركتك وحدك كي تنام

قلت وانا انظر الى الشمس التى بدأت فى المغيب :

— سيأتى الليل .. ونشبع نوما

قال :

— لانوم الليلة .. استعد للسهر !

قلت فى تعجب :

— اين ؟

قال فى سرور :

— عند محمود السلواوى .. الليلة دخلة ابنه

قلت :

— اعفى .. ليس لى رغبة فى الذهاب

قال :

— لا .. سيفوتك نصف عمرك ان لم تذهب

قلت :

— لماذا ؟

قال :

— لانه احضر ( القوال ) صديق الحكيم من ( الجعافره ) !

ثم فرك حسب الله يديه وقال فى نشوة :

— ستسمع هذا الرجل بصوته الجميل يغنى (ادوار) (المربوع)

ويغنى الكلام من دماغه ويغنيه بصوته الجميل وكأنه — لحلاوته —  
يحكى لك حكاية

فقلت فى لهجة صادقة :

— ياسلام ؟

قال حسب الله في حماس :

- والله .. في احدى المرات اجتمعوا عليه خمسة ( قوالين )  
من الفطاحل ليعجزوه ولكنه غلبهم جميعا ولم يستطيعوا حتى ان  
يجاروه .

ثم استطرد لما رأى اهتمامي :

- كان الواحد فيهم يقول ( دوره ) فيرد عليه في الحال بدور  
مطابق لكلامه ( فنه ) في نفس اللحظة .. الى ان اعجزهم جميعا  
قبل مطلع الفجر !

قلت لحسب الله :

- هل تحفظ شيئا مما قيل ليلتها ؟

قال في أسي :

- عيبي اننى انسى بسرعة .. ولكننى اذكر ان احاسهم  
قال له :

« يا حكيم .. انا سأقيدك بقيد من حديد .. وان كنت قوال  
بحق فك نفسك »

فقال له : « هات ما عندك » .. فغنى قائلا :

« قيدا حديد سكيته فيك سكانه »

اتلموا الانجليز احتاروا في فكانه

الى عنده دواك مات واتقفل دكانه

وبيته خرب هجروه سبكانه »

فوضع الحكيم يده على خده ورد عليه في الحال قائلا :

« قيدا حديد احترنا في سبكانه »

الأربعة الاقطاب كانوا في فكانه

البيت العمار ما يهجروه سبكانه

الى عنده دواى مات .. ولده مكانه »

ثم قال حسب الله في اعجاب :

- ارايت ؟ .. الذين فكوا قيده هم الاقطساب الأربعة  
السيد البدوي .. وسيدى الرفاعي .. وسيدى التسوقي ..  
وسيدى الكيلاني .. وطبعا هؤلاء اقوى من الانجليز الذين لم  
يستطيعوا فكه !

وفجأة سمعنا طرقات على الباب دخل على أثرها عم عبد الله  
ويصحبه ( مهدي ) زوج اختي ( نجله ) .. فرحب بهما حسب الله  
وقال لي مهدي بعد ان جلس :

- اين انت ؟ .. بحثت عنك في كل مكان فلم اجدك .. الى  
ان قالوا لي انك كنت في ( محصر ) العباديه ..

ثم استطرد مهدي بعد أن استرد أنفاسه :

- هل يصح ان تقضى ليلك في الخارج وانا موجود ؟

فسأله حسب الله :

- اين تريده ان يبيت ليله ؟

قال مهدي :

- عندي طبعا

قال حسب الله في مزاح :

- انت نسيبه فقط .. وانا ابن عمه .. فأينا احق به ؟

قال مهدي بنفس المزاح :

- انت من قبيلته فقط .. لاتجتمع به الا في الجدة العاشر ..

ولكنني نسيبه وبينى وبينه أربع وعشرون ضلعا !! ( يقصد نجله )

قال حسب الله ضاحكا :

- وليكن .. أنت صلتك به ضلة لحم .. وأنا صلتى به ضلة

عظم .. وليس اللحم كالعظم ..

فالتفت مهدي ناحية عم عبد الله وقال :

- احكم بيننا يا شيخ عبد الله .. من منا أحق بمصطفى ؟ ..  
لأنا أرضى حكمك .. فأمال عم عبد الله عمامته الى الأمام حتى كادت  
أن تغطي عينيه .. وعدل من وضع زعبوطه .. وقال بعد أن ضخم  
صوته وكسا وجهه بعبوس مصطنع :  
- حسب الله أحق ..

وانفجر حسب الله ضاحكا .. بينما قال مهدى فى غيظ  
حقيقى :

- حكمت ؟ .. وما أدراك أنت بالأحكام يا ضلالى المجالس ؟  
فقال عم عبد الله دون أن يغير من وضعه :  
- تعلمناها منكم ..

فنظر مهدى ناحيتى وقال وهو يحاول أن يدارى انفعاله :  
- ارأيت .. أكبرت الرجل وجعلته حكما بيننا .. فنى  
شيبته وتحيز لابن عمه ؟  
فقال له عم عبد الله :

- الحق واضح كالشمس .. هما أبناء عم .. وأنت من قبيلة  
أخرى .. فكيف يبيت عندك ؟

فقلب مهدى بصره بين عم عبد الله وبين حسب الله ثم ألقى آخر  
ها فى جعبته وقال :

- اذن .. يتناول الطعام عندى .. وينام عندكم ..  
وأراد حسب الله أن يتكلم .. لكن عم عبد الله منعه من الكلام  
بقوله :

- اتركه لى .. سأرد عليه ..  
ثم التفت ناحية مهدى وقال له وهو يغمض عينا ويفتح  
أخرى :

— ما هذه النباهة ؟

وسكت قليلا ثم قال :

— فسر لنا — بنباهتك — حكاية الطعام هذه ؟!

ولما كان مهدي قد لاذ بالصمت .. استطرد عم عبد الله يقول  
في تهكم :

— رجل ينام في نجع .. ويتناول طعامه في نجع آخر .. لكم  
الجنة والله يا كوامل ! ( قبيلة مهدي )

كان حسب الله غارقا في انضحك .. ومهدي غارتا في الحيرة  
وأنا أنقل بصرى بين الجميع كأن الأمر لا يعنيني .. وقال مهدي  
فيما يشبه الرجاء :

— هل يمكن ان يتناول العشاء عندى الليلة ؟ .. اخته تريد  
ان تراه !

فقال له عم عبد الله :

— هذه لك حق فيها .. اعزمه .. واعزمنى معه !

\*\*\*

ونحن في طريقنا الى بيت مهدي افضيت الى حسب الله برغبتي  
في زيارة أمي .. فغير حسب الله سيره الى طريق ضيق يشق  
الحقول ..

وكان النجع الذى يقع فيه منزل جدى لأمي — وقد توفاه الله  
— يقع في منتصف الطريق بين نجعنا ونجع الكوامل حيث بيت  
مهدي .. كان نجعا صغيرا تحف به المزارع وتحيط به أشجار  
النخيل .. فيبدو وكأنه يقع وسط غابة خضراء .. وفي مقدمة بيوت  
النجع ظهر بيت جدى الذى كان اعلاها واجملها على الرغم من قدمه



.. وبجواره ظهر برج عال للحمام ( الجبلى ) كان فى يوم ما غاصا  
بالحمام .. فلما مات جدى أهمل فبدا وكأنه قلعة أثرية ..  
وما ان طرقتنا الباب ودخلنا - أنا وحسب الله - حتى استقبلتنا  
جدتى استقبالا عاصفا .

كانت جدتى سيدة عجوز جدا ولكنها متينة البنيان .. انا  
لا أعرف عمرها بالضبط .. وهى نفسها لا تعرف عمرها .. وقد  
عرفت بقوة شخصيتها واعتزازها بحسبها ونسبها بدرجة تفوق  
الوصف .. ما ان لمحتنى داخلا حتى بادرتنى صائحة :

- ماذا يظن ابوك نفسه ؟ .. كبير ؟ .. ابوك انت يطرد بنتى  
انا ؟ .. هل هو مثلها ؟ .. هل ابوه مثل ابيها أو امه مثل امها ؟  
ثم سعلت فى قوة واستطردت :

- بنتى أحسن منه .. وأعلى مقاما .. وارفع حسبا ونسبا  
.. كانت ساقية أبيها تدار بأربعين بقرة .. بينما ساقية ابيه ظلت  
الدهر كله لا تملك غير بقرة واحدة .. فاذا تعبت هذه البقرة التى  
كتب عليها الشقاء .. جاء ابوه الينا متذللا يستعير منا الإبقار ..  
لعن الله هذا الزمن الذى أصبح فيه عثمان ابن عبد المعطى يطرد فيه  
فاطمة بنت الحاج ابراهيم الحجازى .. الدنيسا خربت والله ..  
خربت !

وسكتت جدتى فقلت لها مستلطفا :

- يا جده ..

ولكنها لم تدعنى أكمل حديثى .. صاحت بى مقاطعة :

- أسكت يا ولد .. ماذا تريد أن تقول .. وصلنا للزمن  
الذى أصبح فيه ابوك يتحكم فى سيدته وسيدة ابيه .. وصلنا ..  
الله الله يا زمن !

ثم صمتت لشوان قليلة ريثما تسترد أنفاسها وأكملت صياحها :

— جدكم طرد من البلد ( تقصد رأس قبيلتنا ) ولكن جدنا نحن هو الذى اعاده الى البلد وحماه .. هل تريدون ان تساووا انفسكم بنا ؟!

فقال لها حسب الله ضاحكا :  
— لكن .. الا تستحى منى ياجده ؟

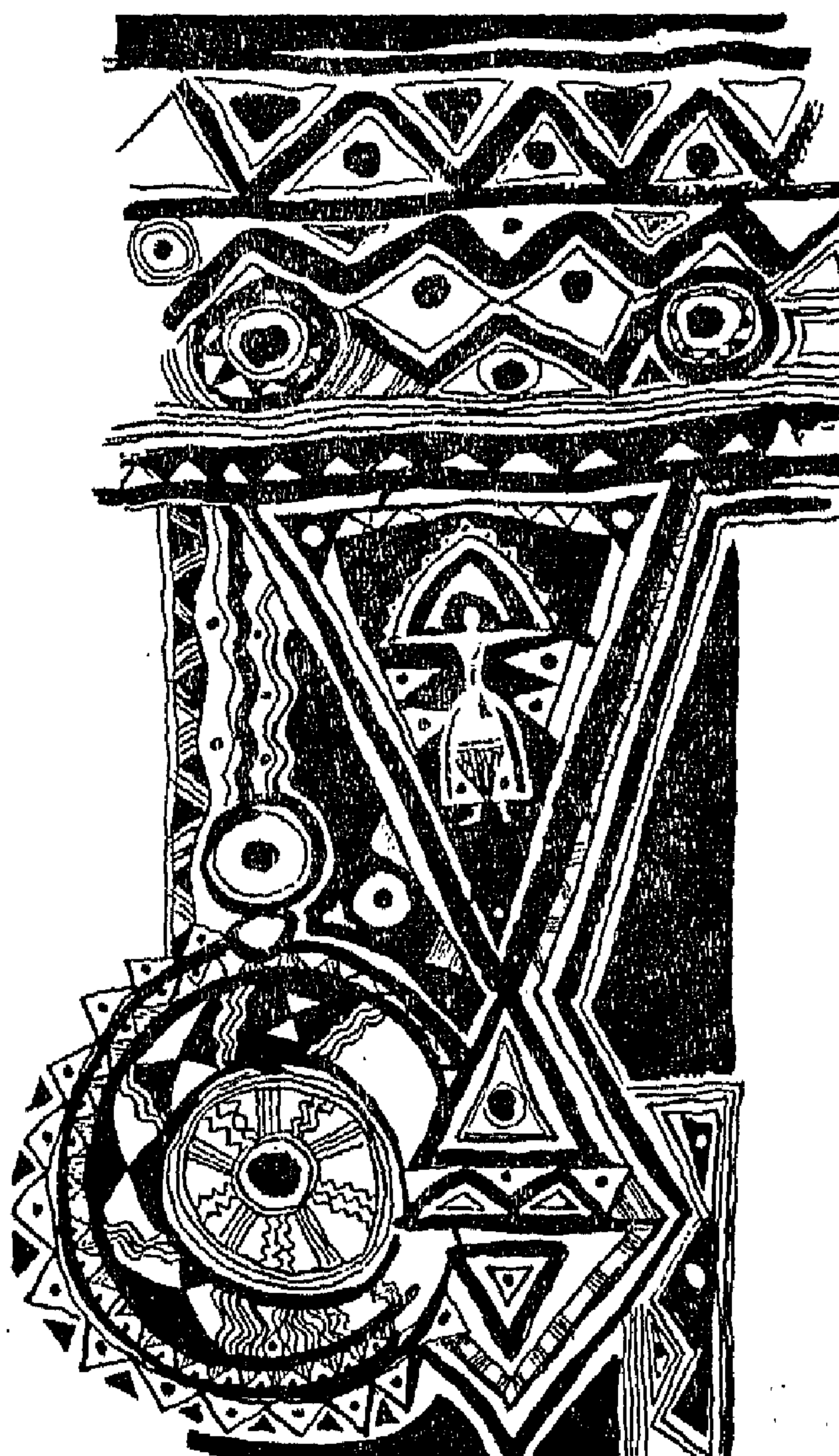
فردت عليه فى سرعة :  
— استحى ؟ .. لماذا ؟ .. هل أنا أكذب ؟ .. ألم يطرد جدكم فعلا ويعيده جدنا ؟ .. انت نفسك تعرف ذلك وكل قبيلتك تعرفه !  
( جدتى وامى من قبيلة واحدة )  
فقهقه حسب الله وقال :

— نحن نعرف ذلك .. وجدكم جدنا أيضا .. فأبى أمه من قبيلتكم ( ثم اشار الى ) وأم مصطفى منكم .. وامهات أكثرنا من قبيلتكم .. لذلك فنحن نفخر بجدكم لانه جدنا نحن أيضا .  
فردت عليه فى حماس :

— نعم .. انكم تتزوجون منا لكى تطلبوا الحماية والشرف فالضعيف دائما يتقرب الى القوى ويتمنى لو يناسبه !  
فرد عليها حسب الله ولا زال يضحك :

— صدقت ياجده .. لكن لاتنسى أيضا انه لو لم يكن رجالنا شجعانا لما رضيتم ان تزوجوهم من بناتكم .. لاسيما وانكم بهذه العظمة !

وصمتت جدتى بعد ان افرغت شحنتها .. واستطرد حسب الله يقول لها فيما يشبه التسليم :



— مهما قلت .. فنحن نوافقك .. الحق معك والله يا شيخنا  
العرب !

ومرت فترة صمت قصيرة كانت جدتي قد هدأت فيها تماما  
.. فالتفتت ناحيتي وقالت بصوت خفيض :

— لا تؤاخذني يا ولدي .. أبوك لم يبق لي عقلا .. ما الذي  
أدخل ابنتي في النزاع الذي بينك وبينه ؟

كان كل هذا الحوار يدور .. وامي جالسة قرب ( الموقد )  
بحيث ارها أنا ولا يراها حسب الله .. كانت تغالب الضحكت على  
الثورة التي استقبلتنا بها جدتي .. لكن وجهها كان يبدو شاحبا  
وكانها تعاني مرضا ..

تركت حسب الله مع جدتي تحت السقيفة .. وقد انقلب حديثهما  
الى ما يشبه المزاح .. وتقدمت حيث تجلس امي .. سلمت عليها  
وجلست بجوارها وقد احسست بقلبي يعتصر لشحوب وجهها  
ولعلامات الانكسار التي بدت تكسو تعبيراتها .

قالت لي في اسي :

— افعلوا ما شئتم يا مصطفى .. انا سلمت امرى الى الله ..  
لكننى لن أعود مرة أخرى .

فقلت لها في حرارة :

— لا بد من عودتك يا امي .. لا بد !

وهنا سمعتنى جدتي فصاحت في حيوية تحسد عليها :

— تعود ؟ .. تعود عند من ؟ .. عند الناس الذين لا أصل  
لهم ولا فصل ؟! أقسم برأس جدى الغالى .. ما اترك بنتى تخرج  
من بيت أبيها ولو اجتمعت كل القبائل !

وانزعجت لعنادها العجيب .. فالتفت ناحية امي وكأننى  
أستطلع رأيها .. فوجدتها تغالب الابتسام .. فداخلنى شيء من

الاطمئنان .. وجاءنى صوت حسب الله يؤنب، جدتى فى مرح :  
- انت تتحدثين معى هنا .. ام تنصتين الى ما يدور بين الولد  
وامه ؟

فردت عليه فى سرعة :  
- آخر الطب النار ! .. الزواج بيع وشراء يرد الى أربعين  
سنة .. بنتى لم تكمل أربعين سنة .. رددنا البيع !  
فصاح فيها حسب الله فى مرح  
- أتركينى أكمل حديثى معك  
ثم خاطبنا قائلاً :  
- اخفضوا اصواتكم من فضلكم .. اننى اروى الى جدتى  
نكتة .. لا تفسدوا انسجامنا !

فقالت له :  
- لا أريد سماع نكاتك !  
فضرب ركبته بيده وصاح فيها وكأنه ينهرها :  
- كلام فارغ .. أنت تودين أن أكمل النكتة ..  
ثم قال كمن تذكر شيئاً :

- أين الشاى الجميل يا جدة ؟ .. هل نحن فى جنازة ؟ ..  
أم انك تظنين شتيمتك لأجدادنا هكذا بدون مقابل ؟  
فالتفتت جدتى ناحيتنا وقالت فى حاتمية :  
- اركبى البراد يا فاطمة !

ورحنا نشرب الشاى الذى يشرب فى أسوان أكثر مما يشرب  
الماء .. ومع رشقات الشاى بدأ الجو يصفو .. وراحت جدتى  
تستمع الى نكات حسب الله فى شغف ، وسمعته يقول لها :

—الم تسمعى يا جدة ما فعله عبد الهادى ؟ ( وهو رجل فى  
الخمسين به لوثة )

وفالت فى سعادة :

— ماذا فعل هذا المجنون ؟

قال حسب الله :

— تأخر عن صلاة الجمعة .. ولما دخل الجامع وجد المصلين فى  
الركعة الأخيرة .. فوقف فى ركن الجامع وحده ورفع يديه وقال  
بأعلى صوته : « الله أكبر .. الله أكبر .. نويت أصلى وحدى .. ولا  
الاحتياج لأولاد الكلب ! »

فقهقهت جدتى بصوت عال وهى تتابع حسب الله الذى وقف  
ورفع يديه الى أعلى وكأنه يصلى .

ولما رآها قد استغرقت فى الضحك تشجع وقال لها :

— غدا ان شاء الله .. سأسعى كى تعود خالتى ( يقصد أُمى )  
الى بيتها فوثبت جدتى من مجلسها وصاحت وقد استعادت رباطة  
جأشها :

— كله الا هذا .. الناس مقامات يا ولد يا حسب الله .. الكبير  
كبير .. والصغير صغير .. بنتى عادت الى بيت ابيها ولن تبرحه  
الا الى القبر .. هل تعتقد انك تضحك على بحكاياتك ؟ .. كلامك  
كله فارغ !



## الفصل الحادى عشر

حينما دخلنا - أنا وحسب الله - ديوان مهدى .. وجدنا عم عبد الله ينتظرنا معه .. تركتهم فى الديوان ودخلت البيت لالتقى بنجلة .. واستقبلتنى نجلة بالبكاء .. كانت تتحدث وتبكي فى آن واحد :

- لماذا كل هذا يا مصطفى ؟ .. الناس يتحدثون عنا فى كل مكان .. يقولون ان أمى طردت من البيت كما تطرد ( الغوازى ) .. أنا لا أستطيع أن أرفع رأسى بين نساء ( الكوامل ) .. التى مثل أمى تطرد يا مصطفى ؟ .. أهذا أملنا فىك ؟ أتغضب والدك ووالدتك ؟ .. ألا تعرف ما يجره غضب الوالدين ؟ .. ثم لماذا تغضبهم ؟ .. هل هما فى حاجة الى أن يدلاك على ستر عار بنت عمك ؟ .. كان يجب أن تتقدم انت من نفسك للزواج منها دون أن يطلب منك ذلك أحد .

واستمرت نجلة فى حديثها الذى اختلط بالدموع .. وبعد قليل انضم إلينا مهدى .. وقال لى معاتبا :

- انت مخطيء يا مصطفى .. لم أكن أنتظر منك هذا الموقف .. هذا الموقف سيصبح عارا على أولادك من بعدك !

شعرت كأننى فى دوامة .. تصيب منى العرق .. وعادت نجلة تقول :



— اننى فى أشد حالات التعب الآن .. أبوك رفض مغادرة المنزل بأى حال .. طلب منه عمك ( والد سلمى ) أن يقيم عنده فرفض .. وطلب منه نسيبك ( تعنى مهدى ) أن يقيم معنا فرفض .. أنا مضطرة الآن أن أقوم على خدمته .. تعبت كثيرا فى هذه المهمة .. أرجوك ضع حدا لعذابى .. وافق على بنت عمك .. لو وافقت سينتهى كل شيء .. والدنا قلبه أبيض .. انت تعرفه !  
وسكنت نجلة فقال مهدى :

— جدتك تصر على عدم الصلح مهما كانت الأسباب .. لذلك اتفقت مع حسب الله ان نذهب الى الشيخ ( محارب ) ونفاتحه فى الأمر .. أبوك وجدتك لا يقدر عليهما أحد غير الشيخ محارب !  
لم أجد كلاما أقوله .. ماذا أقول ؟ .. هل أقول اننى غير مقتنع بحكاية عار سلمى مادامت فرص الزواج أمامها كثيرة ؟ .. هذا القول عار أيضا فى نظرهم .

هل أقول اننى مرتبط بانسانة أكن لها كل حب واحترام .. وهى تنتظرنى الآن وتعد الساعات على عودتى ؟ ..  
لكن لم لا أقول هذا لمهدى ونجلة ؟ .. انهما أقرب الناس الى بعد أبى وأمى .. وهما على أى حال — يمثلان جيلا آخر له مفاهيمه التى ربما كانت جديدة .. من يدري .. ربما اقتنعا بما أقوله وقد يحدث على الموقف بعض تغيير .. لم لا ؟

لمعت الفكرة فى ذهنى واستولت على تفكيرى .. فقلت لهما :  
— أنا سأتزوج من اسكندرية .

ضربت نجلة صدرها بيدها وقالت متسائلة :  
— من أين ؟

أسندت يدي على صومعة الغلال وقلت :  
— من اسكندرية !

قالت فى دهشة شديدة :

— اسكندرية ؟ .. من البحراويات اللاتي يختلطن بالرجال  
دون حياء ؟ .. انت ترضى على نفسك أن تتزوج من واحدة تحدث  
الرجال في غيابك ؟ !

قلت وكأننى أكلم نفسى :

— أنا أحبها .. ولا غنى لى عنها .. وهى مختلفة عن غيرها !  
فحدقت نجلة فى وجهى غير مصدقة .. وفتحت فمها لتتكلم  
لكنها لم تقل شيئاً .. ثم التفتت الى مهدى وقالت له فى انزعاج :  
— لم لا تتكلم ؟

ففتح مهدى فمه وأغلقه عدة مرات قبل أن يقول :

— هذا كلام لا يصدر عن عاقل .. انت كبير فى نظرنا ..  
فلا تسقط نفسك بمثل هذا الكلام !  
ثم جذبته من يدى وهو يقول فى لهجة أقرب ما تكون الى  
الرثاء :

— هيا نجلس مع الضيوف الى أن يجهز العشاء .. لكن لا تقل  
هذا الكلام لأحد غريب .. عيب !!

واتجهنا الى الديوان فقالت نجلة تخاطب مهدى :

— عرفت السر .. أخى ( معمول ) له ( عمل ) من البحراوية  
.. لابد من اخراج هذا ( العمل ) حتى تعود المياه الى مجاريها !!

\*\*\*

عندما بدأنا فى تناول طعام العشاء .. قال حسب الله لعم  
عبد الله :

— هل تأتى معنا الى عرس محمود السلواوى ؟

قال عم عبد الله وهو مشغول بالأكل :

— لا ..

قال حسب الله :

— لماذا ؟ ٠٠ ( القوال ) صديق الحكيم هناك .

فتوقف عم عبد الله عن الطعام وقال فى ثورة :

— ابن الكلب هنا ؟

فقلت فى استغراب لما رأيت غضبه وتوقفه عن الطعام :

— هل حدث منه شئ ؟

قال وقد علا صوته الرفيع :

— ابن الكلب هذا شتمنا فى سنة الفيضان !

قلت فى فضول :

— كيف ؟

قال :

— انكسر سد نجعنا وسد نجع ( القوز ) ٠٠ ودخل علينا النيل

فى البيوت فهربنا برجالنا ونسائنا الى الترعة ٠٠ وأقمنا عليها

شهرين فى ( ذروب ) البوص ٠٠ وفى تلك السنة كان عند البراطيم

عرس ٠٠ أحضروا فيه صديق الحكيم هذا ٠٠ فقال يشتمنا ويشتم

نجع ( القوز ) ويمدح البراطيم لأن سدهم لم ينكسر :

البحر جانا يحوز حوز

كسر المساعيد والقوز

على الترعة اتبهدل الموز

البراطيم أخذت الفوز

ثم كسر عم عبد الله لقمة (قرص) غمسها فى طبق (السخينة)

فى انفعال وقال :

— من قال لهذا المنافق ان نساءنا ( تبهدلت ) على الترعة ؟ ٠٠

وأى فوز هذا الذى كان للبراطيم ؟ ٠٠ البراطيم كانت تساعدهم

الحكومة ٠٠

فقال له حسب الله الذى كان معجبا بصديق الحكيم :  
- خلاصة الكلام .. هل ستذهب معنا ؟  
فرد عم عبد الله فى ثورة :  
أنا أذهب لسماع ابن الكلب ؟ .. على الطلاق ما أذهب ..



كان عرس محمود السلواوى يسبح فى بحر من النور ..  
فقد علقت عشرات ( الكلوبات ) على أعواد من الشجر ثبتت فى  
الأرض لهذا الغرض .. وازدحمت الحيمة الكبيرة بمن فيها ..  
وانتشرت أسرة الحبال فى الساحة الكبيرة فملأتها .. ولم يجد  
الكثيرون ما يجلسون عليه فجلسوا على الأرض .. ووقف صف من  
الشبان يغنون ( المربع ) .. يضربون أكفهم فى ايقاع ويدقون  
بأرجلهم على الأرض مع ضربات الأكف .. يتقدمون خطوتين الى  
الأمام .. ويرجعون خطوة الى الخلف .. وأمامهم وقفت فتاة فى  
الثانية عشرة وضعت على رأسها ( شال ) انسدل على ظهرها ووجهها  
قلم يظهر منها غير القدمين والكفين .. كانت ترقص رقصة أشبه  
ما تكون بقفزات العصفور .. وتتأخر خطوة الى الخلف عند كل  
ايقاع لتحافظ على المسافة التى تفصلها عن الشبان .

كان الشبان يرددون بنغمة أقرب ما تكون الى اللهجة  
السودانية :

يا حبيبى متين أراك  
يستريح قلبى من هواك

وأمامهم .. بعيدا عن الفتاة .. وقف صديق الحكيم ..  
يغنى ( الدور ) فيبدأ الشبان فى ترديد أغنيتهم مع ضرب  
الأكف .. ثم يبدأ الحكيم فى القاء ( دور ) جديد .

كان الحكيم يغنى وجميع الجالسين ينصتون وكأن على  
رءوسهم الطير .. وكلما انتهى من ( دور ) تعالت صيحاتهم من  
كل ركن في اعجاب :

— الله الله يا شاعر العرب !

— لا شريك لك في القول يا قوال !

— الحكيم ولا أحد غير الحكيم !

والحكيم بقامته المتوسطة وجسده النحيل يهز رأسه الصغير  
الفارق في عمامة كبيرة ويبتسم في تواضع .. وعينه تدلان على  
أنه يعيش في دنيا غير دنيانا !

وقال لي حسب الله ونحن نشق الزحام :

— لولا الحكيم .. لما رأيت عشر هؤلاء الناس !

ثم استطرد وهو يبحث بعينه عن مكان يجلس فيه :

— انظر .. ناس من بلدنا وناس من غير بلدنا !

وتلفت حولى .. فرأيت أحد الدروب في الجانب الشرقى  
قد أبعدت عنه ( الكلوبات ) عمدا ففرق في الظلام .. حدثت في  
الظلام فرأيت عشرات من النساء جلسن ينصتن الى الحكيم  
فى شغف .. وقد لمعت فى الظلام على وجوه بعضهن القطع الذهبية  
من ( الدنانير ) و ( الودع ) .. فتنبه حسب الله حيث أنظر فقال :

— العرائس لا يسمح لهن بالخروج من المنازل الا فى يوم

الحكيم !

ثم ابتسم وقال لي فى لهجة ذات مغزى :

— لا تحديق فيهن طويلا .. عينك توجعك !

ورأنا محمود السلواوى .. والد العريس .. فتقدم منا  
وصافح حسب الله فى حرارة ثم صافحنى .. وقال وهو يتقدمنا :

— اتبعانى \*

وتقدم الى سرير يجلس عليه بعض الشبان الصغار ..  
وما ان لمحنونا حتى هبوا واقفين وأجلسونا .

وهنا التفت الحكيم ناحيتنا فابتسم لحسب الله .. فحياء  
حسب الله بإشارة من يده .. فوضع الحكيم يده على خده وقال  
يحيى حسب الله بصوت جميل :

لما حسب الله جانا في المواعيد  
كأنى كنت صايم قابلنى عيد  
ده نبوته يرمى الزول من بعيد  
حبابك حبابك زعيم المساعيد

فوضع حسب الله يده على عمامته يشكره .. وتعال  
الصيحات في اعجاب وذهول :

— أهكذا ( فنن ) الدور في الحال ؟  
— الحكيم معه شيطان يمليه الأدوار !  
— الله الله يا حكيم !

ثم التفت حسب الله ناحيتى وكأنه يقول لى :  
« ألم اقل لك ؟ » .

سبحان الله .. هذا الرجل — كما قيل لى — لا يقـرأ  
ولا يكتب .. ومع ذلك يرد على من يحادثه — أحيانا — ( بدور )  
منظوم يضمه كل ما يريد أن يقوله .. ويقول ( أدواره ) فى جميع  
الأغراض بنفس القوة .. فى الغزل .. فى الفخر .. فى المدح ..  
فى الهجاء .. فى الوصف .. هل الموهبة — وحدها — لها كل هذه  
القوة ؟ .. هل هذا الرجل يعرف عن نفسه كل شيء ؟ ..  
ترى .. لو سمعته نادية .. ماذا كانت تقول ؟ .. هى لن تفهم  
بعض كلماته لأنها بلهجتنا المحلية .. كما قد يخيل اليها أن فى  
أوزانه الكثير من التكسير .. لكن لو شرحت لها بعض الكلمات

الغامضة .. وأفهمتها أنه يدغم بعض الحروف عند نطقها فتبدو  
موزونة .. أنا واثق أنها ستعجب به وتدون الكثير من ( أدواره )  
لماذا أذكر نادية الآن ؟ .. لماذا ؟

انتبهت على رجل يتقدم من حسب الله ويهمس له بكلمات ..  
فلما انصرف الرجل . قال لى حسب الله :  
- أتدرى ماذا سيحدث الآن ؟  
- لا .. طبعاً .  
قال :

- الشيخ غندور ( شيخ البلد ) وهو قوال قديم .. يريد  
أن يعاكس الحكيم ( بدور ) ليمتحن قدرته على الرد السريع ..  
انظروا !

ورأيت شيخ البلد يتقدم من الحكيم .. وامتدت أعناق  
الجالسين الى الأمام فى اهتمام .. وزحف بعض الذين يجلسون  
على الأرض حتى كاد الصف الأول منهم أن يلتصق بأقدام  
الحكيم .. وقال شيخ البلد فى صوت قوى :

- يا حكيم .. استعد لمقابلة أسطولى !

ثم قال فى القاء سريع دون أن يغنى :

إذا كانت بلد يا صاحبي بنعزلها

أسطولى ان دخل المينا بيزلزلها

إذا كانت جيوشك كثيرة بنجرحها ونبرلها

غصبا عنك راياتك اتنزلها

فالتفت الحكيم ناحيته وقال فى نغمة جميلة :

- يا ليل .. والله ليل .. يا ليلنا

ثم وضع يده على خده وقال لشيخ البلد :



البحر لغمناه بالعرض والطول  
تنظر بالعيون يا شيخنا وين تطول ؟  
الى يصدقك زيك يكون مسطول  
فيه شيخ بلد في الدنيا عنده أسطول ؟  
وتعالت الضحكات على شيخ البلد الذي انسحب وهو  
يضحك أيضا .  
في هذه اللحظة وصل عم عبد الله . . افسح له أحد الشبان  
مكانا بجوارنا فقال له حسب الله في سخرية :  
- ما الذي جاء بك ؟  
فرد عم عبد الله وهو يمد عنقه منصتا ( للدور ) الذي كان  
الحكيم يلقيه .  
- أنا جئت من أجل صديقي محمود السلواوى . . وليس  
من أجل سماع ابن الكلب هذا !!

\*\*\*

## الفصل الثاني عشر

كنت فى حقل حسب الله أتفرج على ( زروب ) الملوخية الشتوية التى برعت جزيرتنا فى استنباتها فى غير أوانها وبيعها فى أسواق البنادر القريبة . . حينما جاءنا غلام يركب حمارة يسير بها على عجل . . وقف قبالتنا وقال ونبرات صوته توحى بخطورة ما يقول :

— الشيخ محارب فى الخيمة !

— الشيخ محارب ؟

نطقها حسب الله فى دهشة مقرونة بالسرور . .

والحق أن الاسم انفجر فى أذنى انفجار القنبلة . . فصاحب هذا الاسم ليس بالشخصية العادية فى جزيرتنا . . فقد ارتبط اسمه بكل أحداثها الكبيرة التى كانت بمثابة نقطة تحول فى علاقات قبائلها ببعضها بعضا . . نظر حسب الله ناحيتى وقال لى وما زالت الدهشة المقرونة بالسرور ترتسم على كل تعبيرات وجهه :

— سمعت ؟ . . الشيخ محارب !

قالها بطريقة من يقول : « رأيت أهميتنا ؟ . . وصلت الى الحد الذى يزورنا فيه الشيخ محارب نفسه ! » . . ثم التفت الى الغلام وقال له وهو يلوح بيده .

— سنأتى حالا !

وما ان تحرك الغلام حتى ناداه حسب الله مرة أخرى .

— أخبرتم كل الجماعة ؟

استدار الفلام بحمارته مرة أخرى وقال :

سأذهب الى حقل الشيخ الكبانى لينبه على جيرانه  
قال له حسب الله فى اهتمام :

— لا .. نبه عليهم بنفسك .. هل أنت وحدك ؟

— معى أربعة آخرون .

— اذهب .. شد حيلك !

ثم التفت حسب الله ناحيتى وقال وهو يعيد لف عمامته  
من جديد :

— يجب أن يحضر أكبر عدد ممكن من الجماعة !

ثم أردف فى اعجاب :

— انه الشيخ محارب !

وعدنا الى النجع مسرعين .

وحينما وصلنا الى الساحة الكبيرة التى تقع أمام الخيمة ..  
رأينا حمار الشيخ محارب مربوطا فى آخر الساحة مع عدة  
حمير أخرى .. كان عليه سرج غالى الثمن قيل انه أهدي اليه  
من أحد زعماء السودان ! .. وفوق السرج وضعت ( فروة ) سوداء  
لا مثيل لها — كما قيل — فى قريتنا الا عند العمدة الراحل : .. وفى  
مؤخرة السرج علقت مخللة صوفية صغيرة مزركشة بقصد استكمال  
الزينة .. وكان الحمار يثنى عنقه ويلوك لجامه ويدق الأرض  
فى قوة وكأنه يعلن أن مكانته فى دنيا الحمير لا تقل عن مكانة صاحبه  
فى دنيا الناس !

ولم لا ؟ .. أليس فى مقدور الشيخ محارب أن يجعل قريتنا  
تنقسم الى معسكرين كبيرين متحاربين .. يقف هو على رأس

معسكر .. ويقف العمدة - خصمه اللدود - على رأس  
المعسكر الآخر ؟

لقد قال لى عم عبد الله في إحدى المرات :

قبل ظهور الشيخ محارب كان العمدة - وحده - هو سيد  
القرية .. وكانت البراطيم قبيلته .. التى تملك ثلث أطيان  
القرية - هى سيدة القبائل .. فلما ظهر الشيخ محارب - الذى  
ورث عن أبيه عدة مراكب فى النيل - ساعد قبيلته فاشتريت نصف  
أسطول الجزيرة .. وأصبحت ( الكوامل ) - سيدة البحار -  
تنزع البراطيم على سيادة القرية .. بل واستطاعت أن تقهرهم  
فى أكثر من موقف كما يؤكد عم عبد الله ! .. اذن سلام قريتنا  
فى يد الشيخ محارب .. ان أراد جعله يسود .. وان لم يرد  
سادت مكانه النبايت !

دخلنا الخيمة فوجدنا بضعة شيوخ من قبيلتنا .. بعضهم  
يرحبون بالشيخ محارب وبعضهم تعلقت أعينهم بباب الخيمة فى  
انتظار قدوم أبناء قبيلتنا ليكون الترحيب أكبر وأروع ! .. وكيف  
لا والشيخ محارب وقف معنا ضد البراطيم ؟

كان الشيخ محارب يجلس على سرير حبال وحده .. وعلى  
السريرين اللذين عن يمينه ويساره جلس عدة شيوخ من قبيلته ..  
وتناثر أبناء قبيلتنا فى الخيمة بين جالس وواقف وداخل .. وما ان  
رأى حسب الله الشيخ محارب حتى هتف به فى سرور :

- أهلا بشيخ العربان !

فرد عليه الشيخ محارب وهو يقف له :

- أهلا حسب الله .

وتصافحا بقوة وشوق !

كان الشيخ محارب طويل القامة .. أطول من حسب الله ..

شاربه الأصفر الغزير الذي خالطه المشيب .. تحت أنفه المقوس .. يعطى احساسا بأن هذا الرجل خلق ليأمر فيطاع !

شد على يدي في قوة وهو يصافحني وقال وقد خيل الى أنه يبتسم :

— ما شاء الله .. أصبحت كالرمح يا ولد !

ثم التفت الى حسب الله وقال :

— هل علمتموه ضرب النبوت ؟!

فأجابه حسب الله ضاحكا :

— بل أصبح بارعا فيه الى درجة الخطورة !

فجلس وهو يللم أطراف عباءته الحمراء وبقعة من الشمس تصافح صفحة وجهه النحاسية تسالت اليه من بين نخلتين هاليتين خارج الخيمة .. ثم التفت الى أحد شيوخ قبيلتنا وقال :

— هل قلت للشيخ عثمان ؟ ( أبى ) .

فرد هذا عليه :

— نعم .. أرسلت من يقول له انتظر الشيخ محارب في البيت !

ومد الشيخ محارب يده الحشنة فتناول كوبا من الشاي مدها اليه غلام صغير في صينية دمقراء .. أخذ منها رشفة أتت على نصفها والتفت ناحيتي وصوب في عينيه اللتين تشبهان عيني الصقر وقال :

— ماذا جرى لعقولكم يا مساعيد ؟ .. أجنتم ؟!

فرد عليه حسب الله قائلا :

— انه الشيطان .. عليه اللعنة !

فقال الشيخ محارب :

— الشيطان لا دخل له .. مصطفى مخطيء أولا وأخيرا !  
ثم خفض من صوته قليلا وقال لى :  
— ماذا يقول الناس عنك ؟ .. هل ترضى لنفسك الجبن والعار ؟

ولما لم أجد ما أقوله له ، استطرد قائلا :  
— ان أباك رجل طيب والله .. لو أن ولدى وقف منى مثل  
هذا الموقف الذى وقفته أنت لفلقت رأسه بالنبوت !  
ثم اعتدل فى جلسته وقال مؤكدا :  
— النار .. ولا العار !  
فقال شيخ من قبيلتنا :

— كل شيء يعود الى أصله ان شاء الله .  
فرد الشيخ محارب فى انفعال :  
— طبعاً .. لابد أن يعود كل شيء الى أصله .  
ثم سدد عينيه — وقد ومض منهما بريق عجيب — فى  
عينى وقال :  
— الآن .. سنذهب جميعا الى والدك .. وانت معنا ..  
ونطلب منه الصفح .. ونقول له على لسانك : بنت عمك لك  
وحدك !

ووقف الشيخ محارب فوقفنا جميعا لوقوفه .. وسرنا معه  
فى اتجاه بيتنا .. كنت أسير معه كالمنوم .. وسبقنا حسب الله  
فى خطوات سريعة ليخطر أبى بقدمنا .. واستقبلنا أبى أمسام  
البيت .. وبمجرد أن لمح الشيخ محارب صاح فيه فى لهجة مرحة :  
— عجزت والله يا رجل !  
فرد أبى وقد تهللت أساريره :  
— بل أنت الذى عجزت !

وتصافحا في حرارة وكأنهما لم يلتقيا منذ زمن .. وأشار  
الشيخ محارب ناحيتي وقال بلهجة ذات مغزى :

— اتفقنا على كل شيء .. سامحنا ونحن تحت أمرك !

ثم التفت ناحيتي وصاح بي في صيغة أمرة :

— سلم على أبيك يا ولد وقبل رأسه !

فتقدمت من أبي وأمسكت رأسه بكلتا يدي وقبلت رأسه ..

فأحاط عنقي بذراعه وضمني إليه ولم يتمالك نفسه من البكاء ..

فأحسست بقشعريرة تسرى في جسدي .. هذه أول مرة في

حياتي أرى فيها أبي يبكي .. فقال له الشيخ محارب وكأنه ينهره :

— كفى يا رجل .. أتريد أن تطمع فينا العيال ؟ !

وضحك حسب الله في سرور والتفت ناحيتي وهو يقول :

— الحمد لله .. هذا أسعد يوم في حياتي !

وأشار أبي الى داخل البيت وقال للشيخ محارب :

— تفضلوا .

فرد هذا :

— لا .. سأذهب لمقابلة الزعيمة بنت الزعيم ! ( يعنى

جسدي ) .

ثم اكمل قائلا :

— سأفيدك بالنتيجة وعليك الباقي .. هاتوا الركائب !

وهرول عدة شبان ناحية الركائب .. وامتنطى الشيخ

محارب صهوة حماره القوى .. وشد اليه اللجام .. فرفع

الحمار عنقه في عزة فأصبح أشبه بالجواد منه الى الحمار ..

ورفع الشيخ محارب يده بكمها العريض وقال وهو يتحرك :

— نتقابل يوم السبت ... عند الاشراف في الصلح ..

سلام عليكم .

وانعقدت وراءه موجة عالية من الغبار .

\*\*\*

في المساء تألف وفد لاحتضار أمي من بيت أهلها . . بعد أن علمنا - عن طريق الشيخ محارب - أن جدتي ( تواضعت ) ووافقت على عودتها إلى بيت زوجها . . ذلك لأن وساطة الشيخ محارب - كما قالت - تختلف عن وساطة غيره باعتباره من ( طبقتها ! ) .

تقدمنا أبي وسار إلى جواره عمي عبد الرحمن وحسب الله . . وسرت خلفهم مع سالم ابن عمي وعم عبد الله .

واستعدت جدتي لاستقبالنا استعدادا يليق ( بمقامها ) . . فقد أشعلت ثلاث ( كلوبات ) - مع أن واحدا فيه الكفاية - ووضعت تحت السقيفة - في مدخل البيت - حوالى عشرة أسرة من الحبال فرشت عليها كل ما عندها من سجاد قديم ومساند وكأنها تستعرض سلطانها . . وذبحت خروفا كبيرا - قالت لي نجلة فيما بعد انها لم تترك أحدا في النجع دون أن تخبره بذبحه . . ووجدنا في استقبالنا خمسة من شيوخ قبيلتها على رأسهم ابن ابنها بدوى - وهو غلام في الخامسة عشرة توفى والده وجدتي تعتبره رأس أسرتها العريقة !

سلم علينا الرجال وأجلسونا على الأسرة وأقبلت جدتي من الداخل تسلم علينا . . ومع أن العادة جرت بأنه لا يجوز للحماة أن تلقى زوج ابنتها إلا أن جدتي استثنت من هذه القاعدة لكبر سنها . . لكنها تقول أن الاستثناء ليس بسبب كبر السن ولكن السبب هو أن الرجل الذي تستحي من مقابلته لم تلده أمه بعد ! . .

صافحتنا مريحة وعندما صافحت أبي نظرت إليه طويلا وقالت له ساخرة وهي تضغط على الحروف :

- كيف حالك يا ابن عبد المعطى ؟!

ولم يفعل أبي شيئا غير الابتسام !



وقال لها حسب الله :  
— هل لك في سماع نكتة ؟  
فردت عليه في حزم :  
— اسكت يا ولد !

فقال لها في تصميم :  
— لابد من ان أسمعك .. اياها !  
فلوحت بيدها وهي تتجه الى الداخل :  
— بعد العشاء !

واتجهت وراءها الى داخل البيت .. فرأيت الاستعدادات  
تقوم على قدم وساق .. وقف عدة شبان من قبيلة جدتي أمام  
قدرين كبيرين .. أحدهما يغلى فيه المرق على أجزاء الذبيحة ..  
والآخر يمتلىء أرزا .. بينما جلس عدة نساء بجوار أمي حول  
عدة صوان يفتتن خبز ( النشابى ) الرقيق فى الأطباق .

كانت أمي تعمل فى همة ونشاط وقد بدا عليها السرور وان  
حاولت اخفائه .. بينما راحت جدتي تشرف على الجميع فتأمر  
هذا وتنهى ذاك وكأنها قائد فى معركة .. وقد رأيتها تصف أحد  
الشبان بأنه ( حمار ) لأنه وضع قطعة من ( الكبد ) فى أحد  
الأطباق .. ( والكبد والكلاوى والكرشة ) تعتبر عيبا فى موائلنا  
التي تنصب للضيوف .. وبين الفينة والفينة كان يأتى ( بدوى )  
— ابن خالى — ليشرّف هو الآخر على الاستعدادات .. يشرّف  
تحت ( اشراف ) جدتي .. والاشراف على واجبات الضيافة  
يعتبر أولى مراحل السيادة كما تقول جدتي .. وعندما لمحتنى  
أقف فى مدخل الموقد صاحت بى أن أعمل شيئا فاخترت لنفسى  
أسهل مهمة يمكن أن أقوم بها .. الا وهى تفتيت خبز النشابى  
فى الأطباق .. ولما وقفت فوقى أثناء ( اشرافها ) قلت لها مداعبا :  
— أكل مناسبة ذبيحة يا جدة ؟ .. لم هذا الاسراف ؟

فنظرت الى من طرف عينها وقالت وهى تشير ناحية أمى :  
— ما الذى يليق بمقام أمك فى نظرك ؟ .. دجاجة ؟  
ثم لوت شفتها وكأنها تقول : « ما الذى أدراك أنت أو أباك  
بمثل هذه الأشياء ؟ ! »

وتقدم الشبان فرفع كل واحد منهم صينية على راحته  
وتقدموا بها فى صف صغير أمام الرجل الذى يقف أمام القبدر  
الأول .. فوضع لهم المرق على أطباقهم .. ثم تقدموا الى قدر  
الأرز فوضع لهم الأرز فوق الخبز المغمور بالمرق ثم عادوا مرة  
أخرى الى قدر المرق فوضعت لهم — معا — نصف أجزاء الدبيحة ..  
أما نصفها الآخر فسيحمل مع أمى حيث تقام وليمة أخرى  
— نسائية — فى بيتنا !

تناول أبى ومن معه العشاء .. أما أنا فقد تناولت العشاء  
بالداخل مع الشبان الذين كانوا يقومون بالخدمة حيث كان  
نصيبنا ( عدة البطن ) من ( كبدة وكرشة ) وما شابه .. ثم تحرك  
الموكب الى بيتنا فى طابور ليس بالقصير .. الرجال فى المقدمة ..  
والنساء فى المؤخرة .. والفلمان الصغار يحملون الكلوبات لانارة  
الطريق .. وما ان وصلنا البيت حتى صاحبت نجلة فى فرح :  
— غدا نبدأ فى عرس مصطفى .. وتكيد الخصوم !

ثم التفتت الى احدى النساء وقالت لها :

— لم يمض يوم واحد على اخراجى ( للعمل ) الذى ( عملته )  
البحراوية لأخى حتى عادت المياه الى مجاريها .. أرايت ؟ !



أغلقت على باب حجرتى وتمددت على السرير .. حاولت  
أن أجد شخصيتى الحقيقية لأحاسبها وتحاسبنى .. فأنا لا أجدها

هنا الا حينما اخلو الى نفسى .. الى أين وصلت ؟ .. الى الآن  
انا لا اكاد أصدق ما يجرى حولى .. هل الانسان مسير ام مخير؟ ..  
ما هو حكمى على نفسى ؟ .. هل انا على حق ؟ .. أنا مخطيء ؟ ..  
ماذا لو عدت ورفضت الزواج من سلمى ؟ .. ما الذى سيحدث؟ ..  
امى ستفادر البيت مرة أخرى ؟ .. أبى سيركب رأسه ويتزوج  
من جديد؟! .. يتبرأ منى ؟ .. يأتى الشيخ محارب مرة أخرى ..  
الشيخ محارب قال لأبى « اتفقنا على كل شيء » .. ما معنى  
هذا ؟ .. الزواج من سلمى ؟ .. اتزوج ؟ ..  
ونادية ؟ .. انتهت ؟ .. خرجت من حياتى ؟ .. نادية ؟ ..  
نادية خرجت ؟ .. معقول ؟ .. أهرب ؟ .. كيف ؟ .. ولم لا ؟ ..  
أسافر دون أن أخطر أحدا .. أجل .. أسافر .. ألا توجد  
وسيلة للموت غير الانتحار ؟ .. ما عقاب من ينتحر فى الآخرة ؟ ..  
كافر ؟ .. جهنم .. ترى ما شكل جهنم ؟ .. أحد العلماء يقول  
انه اكتشف مصلا بفضل يعيش الانسان ثلثمائة سنة .. عالم  
مغفل ! .. أكثر من مغفل ! .. فى اليابان الزلازل لا تكف ..  
هنا لا تحدث زلازل .. طبيعة بلادنا هادئة .. مصيبة ! .. جدتى  
شجاعة .. أشجع منى .. أنا جبان ! .. صديقى السكندرى  
( النبراوى ) يقول لى « شخصيتك قوية ! » .. مغفل هو  
الآخر .. كل الناس مغفلون .. هل المحتضر يرى عزرائيل ؟ ..  
ما شكل عزرائيل ؟ .. أستغفر الله العظيم !



استيقظت من النوم على أصوات طلقات نارية مصحوبة  
بالزغاريد .. كانت الساعة حوالى العاشرة صباحا .. انهكنى  
التفكير ليلة أمس فتأخرت فى النوم .. فتحت باب حجرتى

وأخرجت رأسى أستطلع الخبر .. رأيت عشرات النسوة فى بيتنا  
فاديات رائحات .. تحت السقيفة عدة ( بروش ) فرشيت بجانب  
بعضها .. كوم عليها قطع ملابس زاهية .. ملابس نسائية ضمت  
جميع الألوان .. أحمر .. أخضر .. أصفر .. برتقالى ..  
لحتنى نجلة .. صاحت بى مهللة :

— صبح النوم يا أمير !

أمير ؟ .. أمير هنا معناها العريس ! .. التفتت النسوة  
ناحيتى وزغردن .. أغلقت باب الحجرة وجلست على السرير ..  
أشعلت سيجارة .. اذن هى ( الخطبة ) أحضرت لتذهب بها  
النسوة — كالعادة — الى بيت سلمى .. المسألة جد .. جد  
فعلا .. أنا سأتزوج ! .. أتزوج حقا ؟ .. أهذا هو الزواج ؟  
لم يكن هكذا فى مخيلتى ! هل أنا أحلم ؟ .. ربما ! .. أنا أجلس  
الآن على السرير .. فى الخارج ضجة .. فى يدى سيجارة ..  
الدخان يتصاعد منها .. أجل .. هو دخان حقيقى ! ..

عادت طلقات الرصاص من جديد .. أعقبتها الزغاريد ..  
فتح الباب ودخلت نجلة .. انها فرحة .. الغريب انها فرحة !  
— لماذا تجلس هكذا يا أمير ؟

أمير فى عينك وعين الدين خلفوك ! .. ما الذى أخرجك الى  
هذا القرن ؟ .. كيف يحب الانسان من لا يحترمهم فى باطنه ؟  
كيف ؟

— ألا تتفرج على ( خلق ) العروسة ؟

خلق ؟ .. أسمه خلق يا ذوى الحسب والنسب ؟ .. نادية  
تقول انها تحكم على محدثها من كلماته .. ان جاءت كلمة غير  
منسجمة مع الجملة تحس بها كالنشاز ..

— عشرين قطعة أحضرناها للعروسة .. كلها حرير من  
الغالى ..

انغالى ؟ .. أهذه الألوان الفاقعة هي التى سيراها عليها  
صديقى ( النبراوى ) ؟ .. لشد ما أحبك يا نبراوى وأحب دعاباتك  
الساخرة .. ولشد ما أكرهك الآن !  
- مالك ؟

قالتها نجلة فى انزعاج .

- لا شيء !

- فيم تفكر ؟

- لا شيء !

حدقت فى وجهى مستغربة .. أنا أعرف سر استغرابك ..  
تقولين « ( العمل ) وأخرجناه .. ماذا تبقى ؟ ! » .

- قم ارتد ثيابك .. الرجال بدءوا يتجمعون فى الخارج .  
تحاملت على نفسى لأرتدى ثيابى .. وقالت نجلة :

- هذا اليوم انتظرته طول عمرى .. هذا اليوم ليس يوم  
فرحك .. ولكنه يوم فرحى أنا !

افرحى .. ما أسعدك .. وما أشقانى .. استطردت نجلة :

- كلما رأيت واحدة من صديقاتى فرحة بزواج أخيها أكاد  
أبكى .. جاء اليوم الذى سأضحك فيه من قلبى !

أنا فى واد وأنت فى واد .. لماذا لم تولد فى اليابان ؟ !  
- أتكلم نفسك ؟

كانت تكلمنى وهى تحديق فى وجهى وفمها نصف مفتوح .  
- لا !

- أكمل ارتداء ثيابك .. هيا يا أمير !

فتحت نجلة الباب وصاحت فى النسوة فى فخار :

- الأمير !

استقبلتنى النسوة بموجة عالية من الزغاريد .. ما ان تخطيت  
عتبة الحجرة حتى بدأت تعليقاتهن :

— صبي ( جميل ! ) .

— مثل الزرع الأخضر !

— شبه أبو زيد الهلالي !

غضضت الطرف وأسرعت الى الخارج . . وجدت الخيمة  
قد امتلأت بأبناء القبيلة . . شيوخا وشبابا . . ما ان رأوني قادما  
حتى هبوا واقفين بما فيهم أبى . . وأيديهم مبسوطة لمصافحتي . .  
عندما تقدمت أصافحهم اعتلى حسب الله أحد أسرة الحبال وصوب  
بندقيته الى السماء وأطلق عدة أعيرة نارية . . وجاويته عدة بنادق  
أخرى مع شبان القبيلة . . جذبنى أبى اليه وعانقنى طويلا . . نزل  
حسب الله من السرير فعانقنى وقبل جبته . . وأجلسونى فى صدر  
المجلس . . ودارت أكواب ( الأباريق ) على الحاضرين . . انتابتنى  
مشاعر متباينة . . ولمحنا النسوة خارجات من بيتنا فى طابور طويل  
فى اتجاه بيت عمى عبد الرحمن . . كل واحدة تحمل على رأسها  
طبقة كبيرة من الخوص الملون عليه قطعة قماش زاهية . . بعض  
النسوة يضعن على أطباقهن أقمعة السكر . . وقد حملن الدفوف  
ورحن يغنين أغنية جماعية تعلن عن مهمتهن . . إحدى النساء تبدأ  
الغناء والباقيات يرددن وراءها :

والطبل بحرى المدينة

يا بنت شيخ القبيلة

جبنا شليلك وجينا

كله كرامة لأبوك

\*\*\*

والطبل بحرى البلد

يا بنت شيخ العزب

جبنا شليلك وعجب

كله كرامة لأبوك

مر طابورهن حتى غاب عن أبصارنا وتلاشت أصواتهن رويدا  
رويدا . . وظللنا فى مكاننا من الخيمة حتى جاء من يعلن أن

النسوة قد عدن أدراجهن .. وبدأ موكبنا يتحرك صوب بيت  
عمى .. ووجدناه فى استقبالنا وبصحبته عدة رجال من  
قبيلتنا .. ودخلنا ( الديوان ) الملحق ببيته - وبعد أن جلسنا على  
الأسرة ألفت أبى الى حسب الله وقال له :  
- تفضل يا شيخ حسب الله !

وساد الصمت .. ووقف حسب الله .. وقال بطريقة  
خطابية :

— يا شيخ عبد الرحمن .

فرد عمى دون أن يرفع رأسه :

— أى والله ! ( نعم ) .

قال حسب الله بنفس الطريقة الخطابية :

— مصطفى ابن الشيخ عثمان يريد أن يحتفى فى الحسب  
والنسب !

ولم يرد عمى .. رد أحد الشيوخ الجالسين بجواره  
— خال سلمى - ووضع يديه فوق عمامته الكبيرة وقال :

— مرحبا به .. ان لم تحمله الأرض .. حملته الرأس !  
قال حسب الله :

— ماذا تريدون يا أهل الحسب والنسب ؟

رد الشيخ خال سلمى :

— الذهب والفلة والخلق ! ( الملابس ) .

فمد حسب الله يده بمنديل ملفوف وقال :

— هذا هو مهر بنت الأصل .. هو الذهب والفلة والخلق !

فمد الشيخ يده وتناول المنديل وقال دون أن يفتحه :

— قبلنا !

فنظر حسب الله ناحية الجالسين وقال :

— بنت الحسب والنسب مهرها غال .. مائة جنيه يا عرب !

ثم قال وهو يهم بالجلوس :

— الفاتحة .

وقرئت الفاتحة التي تعتبر — وحدها — عهدا بالزواج ..

ثم نظر حسب الله ناحيتي وقال :

— مبروك يا أمير .

وانهالت التهنئة من الجالسين .

— ربنا يهنئكم يا أمير .

— زيجة أبدية يا أمير !

— تغلبها بالمال .. وتغلبك بالعيال يا أمير !

ثم دخل علينا سالم — ابن عمى — آتيا من داخل البيت ..  
يحمل صينية نحاسية كبيرة قد امتلأت بالبلح .. فملا حسب الله  
يده بكمية من البلح ورشه فوق رأسي .. ووزع الباقي على  
الموجودين .

وعند عودتنا سألتني عم عبد الله :

— كم دفعتم في المهر .. عشرون أم ثلاثون ؟

قلت :

— مائة .. حسب الله قال مائة .

لكنه أغمض عينا وفتح أخرى وقال :

— المائة هذه أمام الناس .. لكنها — طبعا — عشرون

أو ثلاثون !





ظلت النساء تضرب بالدفوف في بيتنا الى ما بعد منتصف الليل .. رددن عدة أغنيات مشهورة .. الا أن الأغنية التي سادت ليلتها هي التي تتحدث عن الدين ( يشقون ) المدين بأسفارهم الكثيرة .. ويقتحمون الدروب الخطرة .. وكان اسمي يتردد خلال الأغنية باعتبار أن الأسفار لا يجيدها غيري ! .. أما بقية الناس فهم مجرد ( قش ) من النوع الذي تدوسه « البهائم » بأقدامها .. أو مجرد « عفش » من صنف « البروبي » — أعواد القمح اليابسة — وما الذي يدري هؤلاء بالأسفار؟! وكان مطلع الأغنية :

|               |                |
|---------------|----------------|
| يا قش البهائم | ايش خبرك للسفر |
| شقاق المداين  | السفر لمصطفى   |

\*\*\*

|                |                |
|----------------|----------------|
| يا عفش البروبي | ايش خبرك للسفر |
| شقاق الدروب    | السفر لمصطفى   |

وبين كل لحظة وأخرى تبعث نجلة في طلبى .. فاذا ذهبت اليها اتعثر في مشيتي بين النساء الجالسات على ( البروش ) بدفوفهن وقد اندمجن في الغناء .. صاحت في مرح :

— أين العادة يا أمير ؟

فأخرج من جيبى بضعة قروش أعطيها لنجلة فتقوم بنثرها عليهن وتنطلق الزغاريد .. وتكررت حكاية ( العادة ) هذه أكثر من عشر مرات .

في الخارج تجمع الشبان أمام الخيمة — الشبان فقط — وقد ارتدوا أحسن ما عندهم .. ووقف عشرة منهم في صف

يرددون أغنية ( العراسة ) الشعبية .. وأمامهم وقف شباب  
يبدأ فى غناء ( الأدوار ) فيرددون أغنيتهم بمجرد انتهائه من القاء  
( الدور ) مع ضربات الأكف .. وردد الشبان أغنيات كثيرة كانت  
أهمها الأغنية التى تنصح من يريد الزواج أن يبحث عن ذات  
( الأصل ) ويصرف النظر عن جميلة الألوان والأصباغ :  
« سيب اللون تقى الأصلحة .. وسيب اللون »

وفى آخر الليل كادت تنشب معركة بين شبان عائلة  
( النواصر ) وشبان عائلة ( المقاطير ) - والجميع من قبيلتنا -  
لولا أن تدخل الباقون بمساعدة عم عبد الله الذى جاء على أثر  
الصياح .. واختتم عم عبد الله الليلة بأن تربع على الأرض  
وجلس الشبان حوله وراح يغنى الأغنيات السودانية التى  
تعلمها فى السودان أثناء إقامته هناك فترة من شبابه :

|               |                     |
|---------------|---------------------|
| قلت زى مسين ؟ | قالت لى باريدك      |
| شمال ويمين !  | قالت زى عينيه الجوز |

فصفق له الشبان وهللا .. وكان ختامها مسكا !



## الفصل الثالث عشر

استيقظت من الفجر .. فاليوم يوم ( الزيارة ) .  
سنزور ضريح الشيخ ( عامر ) الموجود على الشاطئ  
الشمالى المقابل لجزيرتنا .. اذ أن عدم زيارة العريس والعروس  
للشيخ عامر - كما قالت لى نجلة - تنتج عنها أضرارا جسيمة  
أهمها أن الزواج لا يتم !

نزلت فى مركب شراعية صغيرة زينها صاحبها بعدة قطع  
من القماش الملون جعلها فى شكل أعلام صغيرة .. وعلقها فى  
مقدمة ومؤخرة المركب .. وعلق واحدة على أعلى الشراع ..  
وكان بصحبتى سبعة من شبان قبيلتنا كان أبرزهم ( جاد )  
الذى عرف بوسامته وأناقته .. وكان يعلق على كتفه مخلاة  
صغيرة مزركشة بداخلها هدية الأسرة للشيخ عامر .. وهدية  
الأمير للعروس .. وعلى غير بعيد من مركبنا وقفت مركب أخرى  
نزلت بها سلمى وبصحبتها عدة فتيات وثلاث سيدات .. ولم  
يكن يظهر من سلمى غير الكفين والقدمين .. فبمجرد اقترابها  
من المركب اسدلت ( شالها ) الحريري الأصفر على وجهها كي  
لا المحها - تقاليدنا تمنع رؤية العريس لخطيبته بمجرد اعلان  
الخطبة ! .

وعندما صعدت الى ( السقالة ) الموصلة الى المركب نظرت  
اليها خلسة وهى ترفع طرف ثوبها فتظهر ساقها الجميلتين  
اللتين أكسبتهما الحناء لونا زاهما جاذبية ! .. وانتابنى شعور

لا أدري كنهه ! .. ولما أطلت النظر لمحنى ( جاد ) فنظر  
ناحية الماء - بعيدا عنى - وقال بلهجة ذات مغزى :

- معنا واحد .. عينه تفلق الحجر !

فتنبهت لعبارته.. وحولت بصرى بعيدا .. وتتابعتم الفتيات  
على ( السقالة ) ووقف الشبان على حافة مركبنا يحملقون فيهن  
بأنفاس مبهورة .. وبدأت تعليقاتهم الهامة تتردد .. قال  
أحدهم :

- أكل الأرض جميل !

فرد عليه آخر :

- بل الجوافة الذ طعما !

نزلت الفتيات إلى المركب ولم يكن معهن من الرجال غير  
صاحب المركب العجوز .. وعندما بدأت المركبان في التحرك  
صاح صاحب مركبنا يخاطب زميله فى المركب الأخرى :

- ناس فى نعيم .. وناس فى جحيم !

فأجابه الآخر فى شماتة :

- كفاك الأمير !

فرد هذا فى أسى :

- وماذا سأفعل بالأمير ؟!

ثم غرس المدراة فى الماء .. واتكأ عليها بكل قوته وقال فى  
صوت مكتوم :

- الدنيا حظو .. و .. و .. ظ !

وتعالت ضحكات الشبان فجأوبتها ضحكات الفتيات كأنها  
زقزقة العصافير .

وفى منتصف النيل .. اقتربت المركب من جزيرة (العرب)

الخالية من السكان والتابعة ( لمستعمرات ) جزيرتنا . . فصاح  
أحد الشبان في فرح :

— هيا نمرح قليلا في جزيرة العرب . . ثم نستأنف الرحلة .  
فتعالت صيحات الشبان في استنكار :

— أتريدنا أن نفرق ؟

— الشيخ عامر يغضب !

— أهذا كلام يقال ؟

ثم قال المراكبي في لهجة العالم ببواطن الأمور :

— في إحدى المرات . . انقلبت بنا المركب . . لأننا زرنا

الجزيرة قبل زيارة الشيخ عامر !

ثم أردف موضحا :

— الشيخ عامر سريع الغضب . . ولا يقبل زيارة من لم

يقصده رأسا !

ومررنا بجوار جزيرة العرب بخضرتها الزاهية والتي أغدقت

عليها الطبيعة بغير حساب . . ورسونا على الشاطئ الشمالي . .

ونزلت مع الشبان في اتجاه ضريح الشيخ عامر . . وأبت

الفتيات أن ينزلن الا بعد أن نتواري عن أعينهن . . وبعد مسيرتنا

بمسافة كبيرة التفت خلفي فرأيت موكبهن يسير على مهل في

اتجاهنا . . ولما دخلنا الضريح تقدم ( جاد ) وخاطب الضريح

بكلمات محفوظة قائلا :

— يا شيخ عامر . . انك لم تخذلنا أبدا . . ابنك مصطفى

جاءك لتقف معه . . واليك طلباتك . . الفاتحة !

ثم خلع المخلاة من كتفه وأخرج منها مقدار ( قدح ) من

غلة الذرة . . وضعها في تجويف في الحائط المقابل للضريح . .

ووضع معها عشرة قروش . . وعلق على الضريح علما صغيرا من

القماش الأبيض قد طلى الى نصفه بالحناء .. ورسم على النصف الآخر ثلاث دوائر صغيرة .. ثم قرأنا الفاتحة وخرجنا مسرعين لنفسح الطريق لسلمى وموكبها .

وعند خروجهن تقدم جاد منهن وناول احدى السيدات المخلاة الصغيرة بما تحويه - قمعين من السكر وعدة زجاجات صغيرة من الكلونيا ( بنت السودان ) - وقال لها :  
- هاكم زيارة العروسة !

وعند عودتنا استقبلتنا جميع البيوت التى مررنا بها فى النجع بالزغاريد وصار كل من يلتقى بى فى ذلك اليوم يصفحنى قائلا :

- زيارة مقبولة .. يا أمير !

فأرد :

- تقبلنا .. وتقبلك !

بعد صلاة العشاء مباشرة تجمع أبناء قبيلتنا - شيوخا وشباناً - حول شاعر قريتنا .. الذى أمسك بدف وراح يضرب عليه بأطراف أصابعه فى لحن رتيب مقبول .. وبدأ يروى قصة الصراع بين أبو زيد الهلالي والزنادى خليفة .. وورد ذكر الأبطال من الفريقين المتحاربين .. السلطان حسن .. الأمير علام .. السلطان معبد .. دياب بن غانم .. الأمير منازع .. الأمير نجدى .. وعندما وصل شاعرنا - الذى لا يأخذ أجرا - الى وصف مبارزة بين الأمير منازع والأمير نجدى .. تضاحك أبناء قبيلتنا وصاحوا :

- أين نجدى ؟

وهب رجل من قبيلتنا - اسمه نجدى - وغادر الخيمة على عجل .. ومضى الشاعر يصف المبارزة التى انتهت بمصرع

الأمير نجدى .. عند ذاك - كما يقول الشاعر - غضب أبو زيد  
الهلالي لأن الأمير نجدى صهره .. فأقسم ليقتلن منازعا ولو  
هرب الى آخر الدنيا .. ثم ضربه بالسيف فطار رأسه في الهواء ..  
وهنا ظهر نجدى - ابن قبيلتنا - وصاح عند باب الخيمة .  
- الله أكبر !

لكن أبو زيد لم يكفه هذا .. فقد كان غاضبا لمقتل صهره  
أشد الغضب .. هجم على الأعداء في قوة ووصف الشاعر هذا  
الهجوم :

« أبو زيد سحب السيف .. سكر ترجم من غير كيف ..  
بقي في الخلايق يكف .. يشرق ياخذ عشرين .. يقرب ياخذ  
ثلاثين .. قرضهم .. قل عددهم .. جاب الزايد نقصان » .  
وانتابت الموجودين نوبة من الحماس .. وكان أكثرهم حماسة  
الشيخ نجدى كان يتابع الشاعر عند كل مقطع :

- اضرب .. اقتل .. الكلاب .. اولاد الكلاب !  
وتحمس هم عبد الله فأمسك عصاه من طرفها ورفعها الى  
أعلى وهزها قائلا :

- فتحت نفسنا للقتال والله !  
ثم التفت الى أحد الشبان بجواره وقال له :  
- اختار لنا قبيلة وافتح معها شكلة .. نريد أن ( نفرط )  
سواعدنا !

ثم مد عنقه يتابع الشاعر .  
واقرب منى حسب الله وقال لى هامسا :  
- غدا يوم ( الدعيان ) .. ستتعب كثيرا من ركوب الخيل ..  
تسلل دون أن يراك أحد .. واذهب لتنام ! .

\*\*\*

## الفصل الرابع عشر

كان ذلك في الصباح الباكر عندما وقعت المفاجأة .. لم اصدق عيني حينما رأيتها فتحت عيني واغلقتها عدة مرات قبل ان اصدق نفسي .. ولكنها هي ! .. ايمكن أن يحدث هذا ؟ .. نادية .. نادية تأتي الى بلدنا ؟ .. مستحيل ! .. لكن هذا حدث !

التقيت بها مصادفة في الساحة الكبيرة أمام الخيمة .. كانت تبحث عن بيتنا يرافقها غلام صغير من قبيلتنا .. بينما وقفت بعض النسوة أمام البيوت المطلة على الساحة يحملن فيها في عجب .. حينما لمحتني لم يتغير شيء في تعبيرات وجهها .. نظرت الى وجهي ثم حولت نظرها عني .. وعادت تحقق في وجهي مرة أخرى في دهشة واستغراب .. وقفت للحظات احملق فيها دون ان اتفوه بكلمة واحدة .. لكنها عاجلتني في فرح :

— الأمر غريب .. هه ؟

هتفت وكأنني أريد أن أبكي :

— نادية ؟

كنت اتمنى لو أعانقها .. لكنني تنبعت للنسوة أمام الأبواب فاغرات الافواه في دهشة .. فصافحتها بكلتا يدي .. ونظرت الى وقالت ضاحكة :



— ما هذه الملابس ؟ .. وما هذه العمامة الكبيرة ؟ ..  
كدت لا أعرفك والله ! .

أمسكت بيدها وبلا شعور منى وضعتها تحت ذراعى وسرت  
بها فى اتجاه بيتنا .. سمعت احدى النسوة تقول للباقيات فى  
الانزعاج :

— انظروا .. انظروا ماذا يفعل ابن عثمان !  
تنبهت .. ابعدت ذراع نادية .. قبل ان نصل الى بيتنا  
بقليل توقفت ..  
سألتنى :  
— ماذا بك ؟  
قلت دون أن أنظر اليها :  
— لا شيء !

شعرت بأن الدنيا تدور بى .. تحولت فرحتى بلقائها الى  
خوف .. الى اين اذهب بها ؟ .. مرت لحظات وانا واقف فى  
مكانى وهى تحقق فى وجهى دون أن تتفوه .. بعض النساء تركن  
البيوت وتجمعن فى طرف الدرب المؤدى الى بيتنا .. تذكرت  
حسب الله .. عدت بها مرة أخرى فى اتجاه بيت حسب الله ..  
سألتنى فى دهشة :

— ماذا حدث ؟  
ابتسمت بلا معنى .. وقلت :  
— لا شيء !

أخلت لنا النساء الطريق فى دعر وكأنهن يخشين من  
شيء ! .. توقفت أمام باب حسب الله هنيهة .. طرقت الباب ..  
أطل علينا ابنه .

— أبوك هنا يا حامد ؟  
فغر الغلام فاه .. وتطلع الى نادية فى دهشة دون ان يرد

.. أعدت عليه السؤال في ضيق .. نلجلج وهو يقول :

— لا .. لا !

قلت له :

— افتح الديوان !

ادخلت نادية الى الديوان واغلقت بابه المؤدى الى الخارج

.. وقلت للغلام :

— ابحث عن أبيك حالا .

راحت نادية تتطلع الى السقف .. احست بضيقى ..

قالت في افتعال :

— بلدكم جميلة !

حاولت أن أسيطر على نفسى .. قلت :

— مثل اسكندرية ؟

مدت ساقها الى الأمام وراحت تتحسسهما وقالت :

— مناظرها خلابة .. أتمنى أن أعيش في جزيرة كهذه !

سمعت صوت حسب الله .. دخل علينا وصافح نادية

بحرارة — قدمته لها :

— حسب الله .. ابن عمى .. وأعز انسان لى فى البلد ..

ابتسمت له نادية فى سرور .. وقلت لحسب الله :

— الأنسة نادية عزت .. زميلتى فى العمل و ...

قال باسم :

— أنا فاهم !

دهشت لكلمته .. ماذا يعنى ؟ ..

خرج حسب الله من الباب المؤدى الى داخل البيت ..

خرجت وراءه .. استوقفته .. وقلت له هامسا :

— أنا فى موقف حرج .. سأشرح لك الأمر .. أريدك أن

تساعدنى !

قال وقد بدا عليه الاهتمام :

— الا تنتظر حتى نحضر بعض الطعام ؟  
قلت :

— يستحسن أولا أن أشرح الأمر .  
أشار الى أن أتبعه الى داخل البيت .. وقفنا تحت السقيفة ..  
شرحت له علاقتى بنادية .. كنت منفعلا اتكلم فى حرارة ..  
وتعبيرات وجه حسب الله تدل على أنه قدر موقفى .. لكنه قال  
لى :

— وبنت عمك ؟  
قلت :

— لست ادرى .. دبرنى أنت !  
قال وهو يقلب كفيه :  
— ولم لم تخبرنى من البداية .. قبل ان يبدأ العرس  
ونتورط ؟

قلت فى حيرة :

— هذا هو ما حدث .. خلنا أمام الامر الواقع !  
فكر قليلا ثم قال :

— لا تحمل هما .. الله موجود !  
ثم أشار الى أن اذهب لاجلس بجوارها الى أن يلحق بى  
... لكننى قلت فى لهفة :  
— ماذا ستفعل ؟

قال فى ثقة :

— سأصرف .. دع الامر لى !  
ومع عجزى عن تصور ما سيفعله تمنيت لو أعانقه .. وعدت  
لأجلس بجوار نادية .. وسمعنا صهيلا متواصلا لجواد فى الخارج  
.. وسألتنى نادية :

— أعندكم خيل هنا ؟

— نعم .

قالت فى سرور :  
- اتمنى لو أركب حصانا !  
سمع حسب الله كلمتها اثناء دخوله علينا .. فقال لها  
باسما :

- سأحقق رغبتك .  
قلت له :  
- لكن النساء هنا لا تتركب الخيل !  
قال حسب الله متوددا :  
- لكن نادية تختلف عن غيرها !  
ابتسمت نادية فى حياء .. واستطرد حسب الله يخاطب  
نادية

- غدا .. نذهب ثلاثتنا ومعنا ثلاثة جياد .. الى الشاطئ  
الغربى المقابل لجزيرتنا .. حيث الماء والصحراء والحرية الكاملة !  
سرت نادية كثيرا .. طفع وجهها بالبشر .. وشعرت أنا  
بارتياح كبير .. واحببت حسب الله كما لم أحبه من قبل ..  
وعاد الجواد يصهل فى الخارج ..  
ولكرتنى أختى نجلة قائلة :  
- الا تشبع نوما ؟ .. الم تسمع صهيل الخيل ؟ .. قم الى  
( الدعيان ) يا أمير .. فقد حضر الفرسان بخيولهم !



كانت مظاهرة من الخيل .. أكثر من عشرين جوادا تقف أمام  
الخيمة .. نزل منها فرسانها من شباب قبيلتنا وربطوها فى طرف  
الساحة .. وكان واضحا انهم جمعوها من أصدقاءهم من مختلف  
أطراف الجزيرة .. أبرزها كان جواد شيخ البلد الأشقر .. قيل  
انه لم يهزم قط فى سباق .. بل قيل انه هزم كل الجياد المشهورة

فى القرى المجاورة أثناء سباق موالد الشيخ عامر .. كانت أشعة الشمس تنعكس على ظهره فتحدث به تموجات فيبدو كأن له عدة ألوان مختلفة .

دخلت الخيمة فسلمت على الشبان وجلست بينهم .. وأخذ الناس يتجمعون وبدأ بيتنا يمتلئ بالنساء والفتيات .. فاليوم من الأيام التاريخية فى حياة العريس .. فى النهار : ( الدعيان ) على ظهور الخيل .. وفى الليل ( الحنه ) .

جلس الفرسان بملابسهم الزاهية فى ركن وحدهم .. جلست معهم .. وزعت على الفرسان - أولا - أكواب اللبن المحلاة بالسكر ومعها قطع الخبز - المصنوعة خصيصا لهذه المناسبة - على شكل أصابع الموز .

بعد جلوسى بنصف ساعة صاح رجل قادم من ناحية البيت فى لهجة أمرة : « الامير يلبس ! » .. غادرت الخيمة الى البيت وتبعنى حسب الله .. دخل معى الى احدى حجرات البيت .. بدأ يخلع عنى الملابس القديمة ويلبسنى - بيده - الملابس الجديدة .. تجمعت النساء خارج الحجرة ورحن يزغردن ويضربن بالدفوف .. فالحظة هى لحظة ( لبس الامير ) التى لا تتكرر .. ارتديت القميص الابيض والسروال الطويل .. والصدىرى الحريرى .. وضعت فى جيبه رسالة نادية - .. ثم ارتديت الزعبوط .. وناولنى حسب الله سيفاً مستقيماً قد وضع فى جرابه علقتة على كتفى اليسرى .. وأمسكت سوطاً بيدى اليمنى .. ثم ربطت سكيناً - بجرابها - فى ذراعى اليسرى - فوق القميص وتحت الزعبوط - .. وربطت حجاباً جلدياً له قلادة جلدية مجدولة فى ذراعى اليسرى أيضاً ولكن تحت القميص .. ثم وضع فى خنصر يدي اليمنى خاتماً من الفضة .. فتح حسب الله الباب وما ان خرجنا حتى تجددت الزغاريد بقوة وتعالق دقات

الدفوف فى عنف .. وتبعتنا النساء الى الساحة حيث كان الفرسان  
قد امتطوا صهوات جيادهم ووقفوا ينتظروننى فى صفين بديعين ..  
ما ان رأونى حتى نزلوا من على جيادهم وأمسكوا بأعنتها .. أمسك  
حسب الله بالجواد الأشقر وقال لى فى سعادة وحماسة :  
- اركب يا أمير !

وأمسك حسب الله بجواد أبيض وقال :  
- الوزير .. يركب !

وتقدم جاد وعمامته ( بشراشيبها ) الحُضراء يرفرف طرفهسا  
فى الهواء وامتطى صهوة الجواد الأبيض .. وركب بقية الفرسان ..  
وبدأت النساء تغنى أغنية المناسبة وضربات الدفوف قد اختلطت  
بأصوات طلقات الرصاص :

|                         |                |
|-------------------------|----------------|
| شدوا لك حصانك يا مصطفى  | قسوم تعال اركب |
| والولده الفتوة يا مصطفى | يلعبسوا الملعب |

وتحرك الموكب .. وتبعنا الرجال والنساء الى الكوبرى آخر  
حدود نجعنا .. وقال لى أبى وهو يكاد يطير من الفرح :  
- لا تنسوا أحدا .. ادعوا كل الناس .. لا وقت لنا للعتاب  
واللام !



كان الجواد يتبختر بى بطريقة تجلب الكبر لأكثر الناس تواضعا  
.. مرة يسير بجانبه الأيمن .. ومرة يسير سيرا طبيعيا .. ومرة  
يستدير من تلقاء نفسه ويسير بجانبه الأيسر .. ويقفز قفزات  
رشيقة قصيرة بلا سبب يستدعى ذلك اللهم الا حبا فى الخيلاء  
واستعراض فنون الغطسة .

وكان الذى يسير - بجواده - عن يمينى هو ( جاد ) الذى  
رشحته. أناقته ووسامته لأن يكون ( الوزير ) الذى لا يفارق الامير  
ليلا أو نهارا الا فى حالات الضرورة القصوى .. أما الذى يسير عن  
يسارى فهو ( سالم ) ابن عمى .. كانوا جميعا يرتدون الزعابيبط  
الجميلة ويلفون العمائم المزهرة التى حبكت أطرافها بخيوط خضراء  
تعمد أكثرهم أن يشبك طرفها ويترك جزءا من الطرف ليتدلى على  
الجانب الايسر لم يكن يميزنى عنهم الا حملى للسيف والسوط .

فى الطريق اختلف سالم وجاد .. قال سالم : « لنبدأ بالنجوع  
القريبة » .. ورد جاد معترضا : « لا .. نبدأ بالنجوع البعيدة أولا »  
.. وبعد أخذ ورد استقر رأى على أن نبدأ بالنجوع البعيدة ..  
فتركنا الطريق الرئيسى الذى يشق النجوع وسرنا فى طريق زراعى  
الى أن وصلنا الى نجع ( القرقاعة ) .. آخر نجوع قرينتنا .

سهلت الخيل بطريقة غريزية بمجرد دخولنا نجع القرقاعة ..  
تنبه أطفال النجع فتجمعوا حولنا وراحوا ينشدون فى فرح :

« الدعيان .. فى الوديان »

نشار أحد الاطفال ناحية جاد وقال :

- هذا هو الأمير !

فأشار آخر ناحيتى وقال له :

- بل الأمير هذا .. ألا ترى سيفه يا عجل !

وقفنا أمام خيمة النجع .. تجمع أهل القرقاعة حولنا كبارا

وصغارا .. وهتفوا بنا :

- مرحبا .. انزلوا

رد عليهم الزملاء :

- لا نستطيع .. هاتوا ( الأباريق ) !

قال أكثر من واحد من القرقاعة :

— الأباريق ليس قيمتكم .. لا بد من شرب الشاي !  
أصر الجميع على ( الأباريق ) لسرعته وسهولته .. فتح أكثر  
من باب في النجع وتقدم منا عدة رجال وكل منهم يحمل (سلطانية)  
امتلات بالأباريق المحلى بالسكر .. تناول كل منا — وهو فوق  
جواده — رشفة من الأباريق .. شربت أنا أولا ! .. رشفة من كل  
سلطانية .

وقفت أمام الخيمة أنا وسالم وجاد .. وتفرق بقية الصحاب  
بخيولهم على بيوت النجع .. يتقدم الواحد من الباب ويقول بطريقة  
تقليدية :

— يا هووه !

فيرد عليه صوت من الداخل — حريمى غالبا —

— الله هوو !

فيقول :

— تفضلوا عند الشيخ عثمان أبو عبد المعطى !

فيجيبه الصوت :

— يتمم بخير !

كنت أقف — مع جاد وسالم — فى انتظار انتهاء الصحاب من  
مهمتهم والجواد يتقدم بى من تلقاء نفسه — خطوتين الى الأمام ثم  
يتأخر خطوتين .. ثم يرفع رأسه .. ويخفضه .. ويدق الارض  
بعوافره .. ويدور حول نفسه ..

طريقته فى الاعراب عن نفسه ملأتنى بالزهو فحسدت فرسان  
العصور الوسطى على هذه المتعة الجميلة وتمنيت أن أقضى بقية  
عمرى فوق ظهر جواد !

وتركنا نجع القرقاعة الى غيره من النجوع وعند الظهر تماما كنا  
نتناول الغداء فى نجع الكوامل عند (مهدى) بناء على اتفاق سابق .



واستأنفنا الركوب فدرنا على بقية النجوع وعدنا أدراجنا قبل  
مغيب الشمس بقليل وقد نال منى التعب وشعرت بألم شديد  
فى ظهري وفخذى .. وحمدت الله على اننى لم أكن من فرسان  
العصور الوسطى !



قال عم عبد الله يخاطب حسب الله :  
- ليس من حَقك أن تحنى الأمير .. فالذى يحنيه يجب أن  
يكون أبوه وأمه على قيد الحياة !

فنظر حسب الله ناحيتى وقال فى تودد :  
- كنت أتمنى أن أحنيه بيدي ..

ثم أردف فى أسف :

- لكن رحم الله أبى وأمى !

وتلفت حسب الله حوله ونادى شابا يقف بجوار الكلوب  
الموضوع على نافذة الخيمة .

- ركابى !

وجاء الشاب فقال له حسب الله :

- تعال معنا لتحنى الأمير .

وفى البيت وجدنا النساء قد وقفن فى حلقة واسعة ..  
ووسط الحلقة عدة بروش عليها وقاد توهجت جمراته .. على  
الجمر وضع اناء كبير من الفخار امتلأ بالحناء .. صاح حسب الله  
فيهن :

- الطريق .

انفتحت الحلقة قبالتنا فدخلنا منها .. امسك حسب الله بيدي  
ومنكبى وقال : أقعد .

جلست على البرش فخلع عنى الزعبوط وتناول من ( نجلة )  
زعبوطا آخر قديما .. ساعدنى حسب الله فى أن أشمر عن ساعدى  
.. خلعت الحذاء .. تقدم منى الشاب ( ركابى ) وملايده بالحناء  
ثم رفع رأسه يخاطب النساء : « العادة »

ناولته أمى عشرة قروش واعطته أختى نجلة مثلها .

وحدت كل الواقفات حذوهما .. وضع ركابى الحناء فى يدى  
اليمنى .. لسعتنى سخونتها .. ثم ملأ يده بالحناء مرة أخرى  
وضعها فى قدمى اليمنى .. ثم يدى اليسرى فقدمى اليسرى ..  
وفعل مثل ذلك بجاد وسط ضجة كبيرة من الزغاريد .. وجاءت  
نجلة بقطعة قماش قديمة مزقتها الى قطع صغيرة وناولتها لركابى  
الذى لفها حول يدى وقدمى ثم استدار ليفعل ذلك بجاد .. مكثت  
فى جلستى هذه أكثر من ساعتين لا أتحرك .. وترامت إلينا أصوات  
زغاريد آتية من بعيد .. وصاحت إحدى النسوة فى فرح :

– العروسة تتحنى !

غاب حسب الله قليلا ثم عاد يحمل بندقيته .. صوبها الى  
السماء .

– فوق رأسى – وأطلق عدة أعيرة نارية .. شكرته النساء  
بموجة من الزغاريد .. وقالت له أمى :

– يوم حامد !

فرد عليها :

– يوم حجك يا خالة !

يبست الحناء فى يدى وقدمى .. ازال ركابى قطع القماش  
وراح يفرك الحناء ليزيلها .. غسلت يدى وقدمى .. وخرجنسا  
الى الحيمة التى استقبلتنا بالتهليل والترحيب .. وجلست فى



صدر المجلس استمع معهم الى منشد الذكر الشيخ عبد الرسول  
الذى أمتع السامعين :

جات غزالة البرتشكى      للنبي حقا وتبكي  
يا محمد انت مكي      جبرني يا ابن الكرام

ووقف الكثيرون يستعيدونه .. واستخف الطرب بعم عبد الله  
وخلع عمامته بشالها و ( عدبتها ) ولوح بها له .. ولكنه أعادها  
الى رأسه بسرعة عندما حذجه أبى بنظرة حادة !



فى الصباح كان بيتنا كخلية النحل .. بعض الرجال يزحزون  
( قواقع ) الدجاج من مكانها بجوار ( الموقد ) .. والبعض الآخر يضع  
مكانها القدور الكبيرة ذات الفوهات الواسعة .. وعدة رجال آخرين  
منهمكين فى سلخ خروفين كبيرين .. وحولهما عدة غلمان قد  
حملوا أباريق يصبون بها على الذبائح .. والكثير من الغلمان يدخلون  
وقد حملوا على رؤوسهم الصوانى النحاسية الفارغة وعليها الأطباق  
التي جمعوها من بيوت النجع .. ونساء كثيرات يدخلن وقد حملن  
أطباق الخوص عليها خبز ( الملتوت ) المنتفخ وقد تطوعن بخبزه فى  
بيوتهن .

فى الخارج بعض الرجال يشرفون على الغلمان الذين يجمعون  
أسرة الحبال من بيوت النجع ويضعونها فى الساحة الكبيرة أمام  
الخيمة فى صفوف متراسة .. والبعض الآخر انهمك فى كنس الخيمة  
بمكائس من سباط النخيل اليابس .. وآخرون راحوا يرشون  
الساحة بالماء .. ويصلحون من أمر مربوط الركائب .. فالיום هو  
يوم ( النهارية ) .. يوم ( الدخلة ) .

كنت أدخل البيت وأخرج دون أن أعرف لي عملاً .. كنت  
كالقطوع الرأس .. تعصف بي شتى العواطف ومختلف الأحاسيس  
.. خيل إلى أنني فأر وقع في مصيدة .. جلست على جزع نخلة في  
طرف الساحة .. أخرجت رسالة نادية من جيبى - وقد تمزق  
غلافها - ورحت أستعيد قراءتها .. هل أرد عليها برسالة وأشرح  
لها كل شيء ؟ .. ماذا أقول لها ؟ .. هل أقول لها في بداية  
الرسالة : « أكتب اليك في ليلة دخلتى ؟ » .. ماذا تقول نادية إذا  
قرأت هذه الجملة ؟ .. ما هو انطباعها لأول وهلة ؟ .. هل تصفني  
بأننى خائن ؟ .. نذل ؟ .. جبان ؟ كذاب ؟ .. نادية لن تصفني  
بأية صفة من هذه الصفات .. إذ أنها لن تصدق ما أقوله ..  
سيخيل إليها أن الأمر لا يزيد عن دعاية من الدعايات المتبادلة  
بيننا .. استغرقنى التفكير .. وضعت السيف والسيوط في  
حجرى وأسندت رأسى على راحتى .. لمحنى أبى وأنا أجلس على هذه  
الحالة .. لم أتنبه له لا عندما وقف فوق رأسى .. قال لي وهو  
يرفع رأسه بيدى :

- مالك ؟

وقع السيف من حجرى عندما هببت واقفا .. فعقد ما بين  
حاجبيه وهو يسألنى :  
- ماذا حدث ؟

قلت وقد فوجئت به .

- لم يحدث شيء ؟

قال ونظراته تزداد حدة :

- أجلس هكذا فى يوم ( نهاريتك ) ؟

فى هذه اللحظة انضم إلينا جاد .. لمح أبى الرسالة فى يدى  
أشار إليها وقد ربط بينها وبين وجومى .

— ما هذا ؟

تلعثمت وأنا أقول :

— لا .. لاشيء .. رسالة !

مد يده يتناولها وهو يقول :

— ممن ؟

قلت وما زالت اللعثة تلازمني :

— من .. من صديق .

ناول الرسالة الى جاد الذى راح يقرأها بصعوبة .. لم يفهم أبى بعض كلماتها .. كما ان جادا لم يستطع ان يفسرها له .. فالتفت الى غلام وقال له :

— هات الشيخ عابدين !

بعد لحظات جاء الشيخ عابدين — شيخ الكتاب — يقوده الغلام لضعف بصره .. اعاد جاد قراءة الرسالة وراح الشيخ عابدين يفسر ما غمض منها .. وان جاء تفسيره مشوشا بالنسبة للفيلم الذى يعرض فى سينما ( مترو ) .. ظهرت علامات الغضب على وجه أبى .. شعر البعض بالموقف فتجمع اكثر من كان فى الساحة حولنا .. لاذ أبى بالصمت وان كانت نظراته النارية تكاد تلتهمنى .. تصيب العرق البارد منى .. طالت فترة الصمت حتى تمنيت ان تنشق الأرض وتبتلعنا جميعا .. نطق أبى .. قال لى فى غيظ :

— من نادىة هذه ؟

لم اجب .. اقترب منى أكثر حتى كاد وجهه ان يلامس وجهى .. بينما تراجع جاد الى الوراء قليلا .. وراح الباقون يحدقون فى وجهى فى دهشة شديدة .. جاءنى صوت أبى كالرعد :

— من هذه الفاجرة ؟

فاجرة ؟ .. نادية ؟ .. لو أن أحدا غيرك - يا أبى - نطق  
بهذه الكلمة لما تركته يقف على قدميه .. قلت وأنا احاول ان  
اكتب انفعالى .

- ليست فاجرة .. هى زميلتى فى العمل !  
قال فى سخرية :

- زميلتك فى العمل .. تنتظرك عشرين سنة ؟  
لم اجب .. تناول أبى الرسالة من جاد ومزقها فى انفعال .  
قلبى هو الذى يتمزق .. بل انا الذى اتمزق .. سامحك  
الله يا أبى .. قال وهو يستدير :

- لولا انها بنت أخى .. لدخلت عليها انا !  
وانصرف وهو يتمتم بعباسيات لم اتبين منها الا قوله  
« خرجت من الدنيا بلا ولد ! » .. ثم سمعته ينادى حسب الله  
ويسر اليه ببضع كلمات .. تقسدم على أثرها حسب الله منى  
وقال لى :

- ستذهب معنا الآن الى ( مجلس العرب ) .. عند الاشرف  
تذكرت ان اليوم هو السبت .. كنت لا ازال منفعلا ..  
قلت له فى شئ من الحدة :

- لن اتحرك من مكانى !

قال لى وهو يحاول أن يخفت من صوته :

- أبوك أصر على هذا .

أصر ؟ .. وهل اذا تركنى هنا سأهرب ؟ .. ما معنى هذا ؟  
قطع على حسب الله افكارى بقوله :  
- لماذا اغضبته .. ماذا حدث ؟

\*\*\*

## الفصل الخامس عشر

كان الوفد الذى يمثل قبيلتنا فى الصلح يتكون من عشرين شخصا .. وكان اكثرهم من الشيوخ الكبار فى السن .. وكان ضمنهم ( جاد ) الذى تسبب فى المشكلة بضربه ( عباس ) .  
كان أبى يسير فى مقدمة الوفد وقد رسم على وجهه تعبيرا صارما عرفت من النظرة الاولى أنه رسمه خصيصا ليلقى به خصومه هناك وعلى رأسهم ( العمدة ) .

بعد مسيرة دقائق وصلنا الى نجع الاشراف .. فوجدناهم يستعدون لاستقبالنا وقد اخذوا كامل زينتهم .. امتلأت خيمتهم - وكانت واسعة جدا - بأسرة الحبال .. وتصاعد الدخان من حجرة القهوة وبدا مربوط الركائب لامعا وكأنه غسل لتوه بالماء والصابون .. وانقسم رجال الاشراف الى ثلاثة اقسام . الشيوخ - وقد جلسوا معنا بالداخل - يرحبون بنا .. والرجال فى سن الثلاثين يكثرون من الخروج والدخول ويشرفون على الدبائح التى تجهز لغداء الوفود .. والشبان الصغار يهرولون هنا وهناك يقدمون القهوة ويقومون بالخدمة .. وقبل أن ننتهى من ارتشاف ( الدور الاول ) من الشاي .. وصل وفد البراطيم يتقدمه العمدة بقامته القصيرة وعنقه الغليظ يسبقه كرشه الكبير .. وكان وفد البراطيم يتألف من عشرين شخصا تقريبا .. وقد ارتدوا الزعابيب الغالية الثمن وظهرت عليهم سيماء النعمة وأطلت من أعينهم نظرات التعالى واللامبالاة .. وكان الشاب ( عباس ) - معهم .



وخف الاشراف لاسستقبالهم وراحوا يرحبون بهم ثم  
أجلسوهم فى الجانب الشرقى من السقيفة .. وكان وفدنا قد جلس  
فى الجانب الغربى .. وتفصل بين الوفدين حوالى عشرة أسرة ..  
جلس عليها البعض من الاشراف .

كان وفدنا يتبادل النظرات مع وفد البراطيم دون أن  
يكون بين الوفدين كلام .. كل وفد منهما يتجاهل الآخر وكأنه  
لا وجود له .. بينما راح الاشراف يوزعون الابتسامات هناسا  
وهناك ليخففوا من وقع الكآبة التى خيمت على المكان ..  
ويكثرون من الخروج والدخول فى انتظار وفد الكوامل .. وكان  
الاحساس العام ان الصعوبة ليست فى صلحنا نحن والبراطيم  
.. ولكن فى الصلح بين البراطيم والكوامل لما بين القبيلتين من  
حزازات قديمة .

وبدأ عم عبد الله - الذى كان يجلس عن يسارى - فى  
تعليقاته الساخرة .. ضربنى بكوعه فالتفت ناحيته وقال لى  
هامسا :

- هل رايت عجل الطوافش ؟ ( اسم عائلة )  
قلت مستوضحا :

- عجل ؟

قال وكأنه يرئى لجهلى :

- نعم .. عجل الطوافش .. ألم تراه ؟

قلت باستغراب :

- لا .. لماذا ؟

قال موضحا :

- الطوافش .. كان عندهم عجل ضخمة الجثة .. اسود

اللون .. له كرش كبير ملفت للنظر .

قلت وما زال الاستغراب يلزمنى :

— وماذا فى هذا ؟

فقرب فمه من أذنى وقال :

— اتضح لى الآن أن هناك شبه كبير بين عجل الطوافش وبين

العمدة !

واستمر عم عبسـد الله فى تعليقاته فلم يترك أحدا فى وفد

البراطيم الا سخر منه على طريقته .. ثم قال لى :

— هل ترى ذلك الحذاء الفاخر الذى يلبسه العمدة ؟

قلت وأنا أصدق فى حذاء العمدة :

— نعم .

قال وهو يمسك كم زعبوطه المصنوع من القماش الأسود

الرخيص :

— ثمنه يساوى عشرة زعابيط من صنف زعبوطى !

ثم أطلق ضحكة وهو يقول :

— ماذا فى هذا العجل حتى يكون عمدة .. ألم يكن الأصح

أن أكون أنا العمدة ويكون هو عبد الله ؟!

وهنا سمعنا ضوضاء شديدة اختلط فيها صهيل الخيل

بنهيق الحمير .. وهروا الى خارج الخيمة .. وعرفنا

ان وفد الكوامل قد وصل .. وما هى الا لحظات حتى أهل علينا

الشيخ ( محارب ) بقامته المديدة التى تقارب المترين .. وعيناه

تدوران فى محجريهما كعيني صقر ..

وقف عند الباب للحظات يوجه للجالسـين نظرات من نار

.. وشفتاه تتحركان وكأنه يهم بالكلام فيتحرك معها شاربـه

الاصفر الفزير تحت انفه المقوس فبدا وكأنه وقف للتحدى ..

دار بعينيه فى الجالسـين حتى اذا وقع بصره على أبى

انفرجت شفتاه عما يشبه الابتسامة ورفع يده من تحت العباءة

وتمتم :

— مرحب !

فرد عليه أبى من مجلسه :

— أهلا ..

ثم دار بعينه في وفد البراطيم حتى اذا وقع بصره على وجه العمدة عاد العبوس الى وجهه بشكل مخيف .. ثم مضى في طريقه يخب في زعبوطه الواسع يتبعه وفد قبيلته .. الى أن جلس في المكان المخصص له في الناحية الجنوبية من السقيفة .. وقد استغرق وفد الكوامل في دخوله وجلوسه وقتا طويلا .. فقد كان مؤلفا من أكثر من مائة رجل ! .. وبعد أن جلسوا وهدأت الضجة مال عم عبد الله ناحيتي وهمس :

— يبدو أن الشيخ محارب جاء للقتال .. وليس للصالح !  
قلت أوافقه :

— فعلا .. كان يكفي عشرون رجلا .

لكن عم عبد الله قال لي :

— اسكت .. هكذا أحسن !

قلت في دهشة :

— لماذا ؟

قال وهو يشير الى العمدة من طرف خفي :

— صاحبك لا يخاف الا من العين الحمراء !

ثم استطرد يقول :

— زمان .. قبل أن تولد أنت .. كان العمدة القسديم

( والد الحال ) .. يرسل كل من يغضب عليه الى ( السلطة ) ..

فكان أكثر من يرسلهم من قبيلة الكوامل !

قلت :

— ولماذا هم بالذات ؟

قال :

— كان يكرههم الله في الله .. كان يقول : « الكوامل عددهم

كثير .. الكوامل خطر ! » .. كانت كثرتهم تضايقه !  
ثم جلجل عم عبد الله بصوته الرفيع وقال :  
— ولما ظهر الشيخ محارب جمع الكوامل وشسن على  
البراطيم هجوما وأعطاهم ( علقه ) ساخنة لم يروا مثلها في حياتهم !  
قلت وقد شدنى حديثه :  
— ألم يخش أن يبعث به الى ( السلطة ) :  
قال عم عبد الله في ثقة :  
— لا .. الشيخ محارب كان قد جمع بعض المال .. وصار  
يعرف ( الحكام ) .. أصبح مثله مثل العمدة !  
قلت :  
— ألم يثار البراطيم لأنفسهم ؟  
قال وابتسامته تتراقص في فرح :  
— حاولوا أكثر من عشر مرات .. كان آخرها تلك التي  
أوقع فيها الكوامل العمدة من فوق حصانه !  
قلت في دهشة :  
— أوقعوه ؟  
قال عم عبد الله في شماتة ظاهرة :  
— كان البراطيم يحملون النبأيت ويتجهون الى نجع  
الكوامل .. والعمدة معهم يركب حصانه وينادى بأعلى صوته  
( ارجع يا ولد ) .. وكأنه يعمل الذي عليه ويمنع قبيلته .. بينما  
هو المحرض على القتال !  
قلت في لهفة :  
— ثم ماذا حدث ؟  
قال وهو يضم قبضتيه وكأنه يقاتل :  
— هجم الكوامل مثل الأسود على البراطيم فكنسوهم كنسا  
في أقل من ساعة .. ووجد العمدة نفسه وحده وسط العشرات  
من الكوامل .. فأنزلوه من حصانه وأشبعوه صفعا .. ثم زبطوه

بأمر الشيخ محارب - بعمامته وأركبوه الحصان بالقلوب ..  
وساقوه به وهو على هذه الحال !  
وضحك عم عبد الله في تشف وقال :  
- ومن ذلك اليوم .. أصبح البراطيم يعملون للشيخ  
محارب ألف حساب !  
ثم استطرد بعد أن كسا وجهه بعبوس مصطنع :  
- أتعرف .. لو لم يمت العمدة السابق بعدها بشهور ..  
لما انتهت المسألة على خير !  
فسألت عم عبد الله :  
- والعمدة الحالي .. ألم يثار لوالده ؟  
قال في انفعال :

- وهل يستطيع ؟ .. عندما مات أبوه .. كان الشيخ محارب  
قد عزم على ترشيح نفسه عمدة .. فخاف صاحبنا هذا وأرسل  
إليه من يرجوه أن يعدل عن عزمه .. وتصالح معه من يومها وهدأت  
الحال .. لكن يبدو أن النار تحت الرماد !



اعتلى الشيخ منصور كبير عائلة الاشراف ركنا عاليا في  
مواجهة السقيفة له عدة درجات تنتهي بما يشبه المنصة .. وراح  
يخطب بينما صمت الجميع صمتا تاما .. قال الشيخ منصور :  
« بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله الذي أنعم علينا  
بنعمته .. وصلاة الله على أشرف خلقه .. أوصيكم يا عباد الله بحق  
تقوى الله العظيم ولزوم طاعته وأحذركم عن عصيانه ومخالفة أمره  
.. يقول تعالى في كتابه العزيز « إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين  
أخويكم » .. يا أيها الاخوان .. نشكركم على قبولكم مجلس العرب  
عندنا .. بارك الله فيكم .. نستعين بالله ونبدأ الصلح .. »

ومضى الشيخ منصور فى خطبته بصوت هادىء وقور تشيع فيه الطيبة والوداعة .. وقد تطلعت اليه الاعين فى اجلال واحترام لما عرف عنه وعن قبيلته من دماثة الخلق وحب الخير الامر الذى جعل كل قبائل قريتنا تخضع لاحكامهم مهما كانت دون أن ترى فى ذلك غضاضة .

مضى الشيخ منصور فى خطبته وقد انصتت له الاذان فقال فى ختامها :

« سنقرأ الفاتحة على الصفاء والنور دون أن نلتفت الى ما فات أو نسال عن الاسباب .. فقد قال الرسول صلوات الله عليه (خير الصلح ما كان بغير عتاب) .. فما رأيكم رحمكم الله ؟ .. »  
وصمت الشيخ منصور وراح يتطلع الى الوفود يرى فعل كلماته .. فخاطبه العمدة بصوت أجش

— لا بد من ذكر الاسباب !

فرد الشيخ منصور مبتسما ويده تتحسس ذقنه الصغيرة التى أضفت على وجهه وداعة فوق وداعته :

— ولماذا لا نترك الأسباب والعتاب ونأخذ بقول الرسول يا عمدة ؟

فقال العمدة وهو يتأهب للوقوف :

— لا .. المخطيء لا بد ان يؤدب !

ثم تقدم ناحية المنصة فاعتلاها وافسح له الشيخ منصور مكانه .. وراح العمدة يخطب :

« سبحان من رفع السماء .. وبسط الأرض .. وخلق البحر والجبل » وما لى عم عبد الله وهمس فى أذنى :

— هذه الخطبة لا تتغير ولا تتبدل .. سمعتها أكثر من مائة مرة !

ومضى العمدة يكمل خطبته فقال :

« الله سبحانه وتعالى جعل الخلق درجات .. سبحانه .. »

نه فى ذلك حكم .. جعل لأصيل أصيلا .. والحقير حقيرا ..  
والناس مثل الشجر .. الشجرة الطيبة طيبة . والشجرة  
الخيثة خيثة ! »

ضربنى عم عبد الله بكوعه وقال فى سخرية :

– هذه الشجرة التى ذكرها العمدة عمرها من عمر الخطبة ..  
سمعتها أول مرة وكان عمرى عشرين سنة .. وأنا الآن عمرى سنين  
سنة . وهذه الشجرة واقفة فى مكانها .. لا تقع ولا تنكسر !  
واختتم العمدة خطبته بقوله :

« هناك ولد غير مؤدب من المساعيد اعتدى على ابننا .. ونحن  
لن نوافق على الصلح الا بعد تأديبه أمام أعيننا .. والا فنحن قادرون  
على تأديبه بأيدينا .. والسلام ! »

ثم نزل وعاد الى مجلسه ووجهه يتصبب عرقا .. وهنا اعتلى  
أبى المنصة وقال بعد مقدمة قالها كيفما اتفق :

« ابننا لم يخطئ .. ولو كان أخطأ لأدينناه .. لذلك لانستطيع  
تأديب المؤدب ! »

وحانت منى التفاتة ناحية الشيخ محارب فرأيته مشغولا بقتل  
شاربه .. وسألت عم عبد الله :

– لماذا لم يخطب الشيخ محارب ؟

فرد بقوله :

– الشيخ محارب لا يجيد الكلام الا بالنبوت !

هنا قال العمدة يخاطب الشيخ منصور :

– المخطئ يؤدب يا شيخ منصور .

فرد أبى يخاطب الشيخ منصور أيضا :

– ابننا لم يخطئ !

قال العمدة :

– بل أخطأ !

رد أبى فى تصميم :

— لم يخطيء !

قال العمدة — للشيخ منصور أيضا — فى شىء من الحدة  
— ولكننى قلت أخطأ .

رد أبى :

— وأنا قلت لم يخطيء !

قال العمدة وقد ظهر عليه الغضب الشديد :

— على كل حال .. نحن نعرف كيف نأخذ حقنا !

وتكهرب الجو .. وظهرت الحيرة على وجه الشيخ منصور الذى  
راح ينقل بصره بين أبى وبين العمدة فبدا منظره وكأنه يدور حول  
نفسه .. وظهرت الحيرة على وجوه شيوخ الاشراف .. وتبادل وفدنا  
وفد البراطيم النظرات النارية .. وهنا وقف الشيخ محارب ..  
فتطلعت اليه الأعين — لاسيما أعين الاشراف — فى رجاء وكأنها  
تطلب الخلاص على يديه .. فخرج بصوت الشيخ محارب شبيها  
بالزئير .. قال وهو يلوح بيديه :

— أخطأ ؟ .. الذى يدافع عن نفسه تقولون عليه انه  
أخطأ ؟ .. ابن بنتنا لم يخطيء .. والذى يمسسه بالماء نمسه بالنار !  
وجلس الشيخ محارب يللم أطراف عباءته بعد أن زاد النار  
اشتعالا .. ومرت فترة صمت ثقيلة كأنها دهر .. وبدأ الحنق على  
وجه العمدة .. ونمت وجوه شيوخ البراطيم عن الاستياء الشديد ..  
وأطبق الصمت .. وكأن له صوتا يسمع وتحسس حسب الله  
نبوته وهو يتحفز فى جلسته .. وهرول الشيخ منصور الى  
المنصة فاعتلاها .. وقال :

— يا عرب .. هل تقبلون حكمنا ؟

ولما لم يرد عليه أحد أعاد النداء :

— هل تقبلون حكمنا ؟

فرد الشيخ محارب :

— نقبل يا شيخ منصور .



ثم التفت ناحية وفدنا وقال :

— يا عرب .. هل تقبلون ؟

فرد أبى :

— نقبل !

فالتفت ناحية البراطيم وقال :

— هل تقبلون ما نحكم به ؟

فرد العمدة بصوت وشت نبراته بعدم الاقتناع :

— نقبل !

فنزل الشيخ منصور من المنصة وأشار الى ثلاثة من شيوخ قبيلته .. اقبلوا عليه فمضى بهم الى خارج الخيمة وقال يخاطب الجميع :

— نتشاور .. ونحكم بينكم !

وهنا قرب عم عبد الله فمه من أذنى وقال :

— الذى يقبل الحكم لا يستطيع أن يرفضه مهما كان !

ثم استطرد يقول على طريقته :

— ربنا يستر .. أنا شهدت مرة صلحا .. انقلب فى آخره

الى معركة .. خرجت منه بضربة نبوت .. لازمت بعدها الفراش شهرين !

وعاد الشيخ منصور ومعه الشيوخ الثلاثة .. كان متهلل

الاسارير .. سارع الى اعتلاء المنصة ورفع يديه الى السماء وقال :

« اللهم انا نفعل ما نعتقد أنه الحق .. اللهم انا لا نريد الا

مرضاتك .. اللهم وفقنا الى ما فيه الخير »

قال هذا .. ونزل على مهل وهو يقول :

— بسم الله .. وعلى بركة رسول الله .

ثم تقدم فى خطوات وثيدة الى حيث يجلس وفد قبيلتنا حتى

اذا وصل الى المكان الذى يجلس فيه ( جاد ) — وكان بجوارى —

» تقدم منه وامسك يده برفق وقال له :

— قم معى يا ولدى .

وأطاعه جاد .. وسار به الى حيث يجلس وفد البراطيم ..  
حتى اذا كان قبالة العمدة .. مد يده الممسكة بيد جاد وقال للعمدة :  
— هذا هو ابنكم جاد .. جاءكم تائبا معترفا بخطئه .. خذوه  
وافعلوا به ما شئتم !

وهنا بدت الحيرة واضحة على وجه العمدة .. فالتفت يمنة  
ويسرة نحو شيوخ البراطيم وكأنه يستنجد بهم .. وبأدله الشيوخ  
نظرات الحيرة فى صمت لكن أحد الشيوخ — وكان يبدو أكبرهم  
سنا — قال فى صوت مرتعش من أثر الكبر :  
— ونحن سامحناء وتنازلنا عن حقنا !

وارتخت عضلات الوجوه فى كل الوفود .. وعقب العمدة :  
— من أجل خاطركم يا أشراف !

لكن الشيخ العجوز الذى سبق العمدة فى الكلام أضاف قائلا :  
— ومن أجل خاطر جميع الموجودين !  
فهتف الشيخ منصور فى فرح :

— الله أكبر .. بارك الله فيكم .. الفاتحة ..

وارتفعت عشرات الآكف تقرأ الفاتحة .. وما أن انتهوا منها  
حتى انقلب الموقف من النقيض الى النقيض .. تصافح أبى والعمدة ..  
وتصافح العمدة والشيخ محارب .. واختلطت الوفود بعضها  
ببعض .. وكأن عصا سحرية قد مست الجميع .. وهجم علينا شبان  
الأشراف بالصوانى التى فت فى أطباقها خبز (النشابى) اللذيذ  
المغمور بالمرق .. وقد كومت عليه أكوام اللحم .. فتشمزت السواعد  
تخوض معركة اشباع البطون الازلية .. وقال لى عم عبد الله  
وأسنانه تطبق على فخذ كامل لخروف :

— أنا لا أذوق اللحم إلا فى مثل هذه المجالس .. اللهم ادم  
علينا المشاكل والمعارك يارب العالمين !

\*\*\*

## الفصل السادس عشر

في منتصف الليل تماما صاح شاب من قبيلتنا :  
- الردى .. الردى ! ( أى الزفة )

وتحرك موكب (الزفة) صوب بيت عمى .. الشبان يحيطون  
بى فى المقدمة وقد حملوا النباييت المخضبة بالحناء .. والسيدات  
فى الخلف بدفوفهن وزغاريدهن .. ولم يكن معنا من الشيوخ غير  
بضعة أفراد من بينهم عم عبد الله الذى همس فى أذنى قائلا :  
- فى بعض البلاد الأخرى .. العروسة هى التى تزف الى الأمير  
وكانها نعيمة !

وكان الشبان يرددون وراء منشدهم :  
« زين الشمامات نمدح الله »  
وقال أحد الشبان وهو يمسك نبوته وكأنه يستعد للقتال :  
- لن نسلم الأمير ولو استعملنا القوة !  
لكن حسب الله صاح فيه :  
- اسكت !

ثم التفت الى الشبان قائلا :  
- سلموا الأمير بمجرد أن يطلب منكم ذلك !  
وابتسم عم عبد الله وهو يقول لى :

- احمد ربنا لان العروسة من قبيلتك .. لو كانت العروسة  
من قبيلة أخرى لتصدى لك شبانها وطلبوا منك أن تسلم نفسك  
والا فليس هناك من حل غير النبوت !

ثم ضحك عم عبد الله وهو يقول :

— يوم دخلتني رفض أبناء عمي تسليمي .. وهوت النباييت.  
بين الفريقين حتى مطلع الفجر !

ثم اردف وهو يضحك بصوت عال :

— لو ان أبناء عمي قالوا لهم : « ها هو الامير » عندما طلبوا  
استلامي لما خسروا شيئا .. كل الذي سيحدث هو ان ( المنشد )  
فقط هو الذي يتغير .. بدلا من أن يكون من قبيلة الأمير يصبح من  
قبيلة العروسة .. هذا كل مافى الامر .. لكن أبناء عمي تعنتوا  
— كما يحدث دائما — فسكتت الألسن وتكلمت النباييت !

وصمت عم عبد الله قليلا ريثما يحشو فمه بالمدغة ثم قال :  
— وعندما تدخل الكبار فى السن لفض المعركة .. كان مركوبى  
قد ضاع ودخلت على العروسة حافيا !

وفى الدرب المفضى الى الساحة الواقعة أمام بيت عمي تصدى  
لنا عدة شبان يحملون النباييت .. صاح أحدهم فينا :  
— نريد الامير !

فأشار حسب الله ناحيتى وقال لهم :  
— الامير لكم !

فصمت منشدنا وبدأ منشدهم فى الغناء .. وتقدم المركب  
فى سيره فوجدنا الساحة قد امتلأت بأسرة الحبال وهدأت ضجة  
النشيد ودفوف النساء وبدأت عبارات الترحيب .. وأجلسونى  
— أنا وجاد — على سرير تميز عن غيره بما عليه من سجاد ومساند  
جديدة .. ودخلت النساء الى داخل البيت .. وبدأ الشبان ينظمون  
صفوفهم ويغنون أغنية ( العراسة ) .. وبعد ساعة تقريبا صاح  
حسب الله :  
— الدخلة !

وتقدمت ومعى الشبان الى داخل البيت .. ووقفت أمام حجرة  
علق على أعلى بابها طبق صغير من الصينى .. وقال لى حسب الله :  
- اسحب السيف !

فسحبت السيف وقلت : « بسم الله » ثم ضربت طبق الصينى  
بطرف السيف ثلاث ضربات خفيفة .. وفتح حسب الله الباب  
فدخلت - وحدى - وصاح الشبان من الخارج بنشيدهم :  
« زين الشافات نمدح الله »

وجدت نفسى فى حجرة واسعة داخلها حجرة أخرى أصغر ..  
فى الحجرة الداخلية وقفت سلمى ومعها امرأة عجوز .. كانت سلمى  
ترتدى ثوبا اسود كسف - لشفافيته - عن لون الثوب الاحمر اللامع  
الذى تحته .. وتضع على رأسها شالا أصفر اللون .. تقدمت منها  
وسلمت عليها وأعطيتها ورقة مالية من فئة الجنيه .. تناولت الجنيه  
دون أن ترفع اهدابها .. واستدردت لآخرج ولكن المرأة قالت لى :  
- أين العادة يا خالة ؟ !

فاعطيتها ورقة من فئة النصف جنيه .. حاولت أن أخرج لكن  
الباب استعصى فتحه لان حسب الله يمسك بالضبة من الخارج ..  
ناديته باسمه فلم يسمعنى لضجة الشبان الشديدة حوله ..  
فاضطرت أن أضرب الباب بقبضة يدي .. ففتح حسب الله الباب  
واحتضننى مهنئا .. وصافحنى بقية الشبان .. وصاح حسب الله  
وهو يمسك بيدي ويهرول :

- الى البحر !

وهرولنا جميعا الى أن وقفنا على شاطئ النيل .. فوضعت  
يدي اليمنى فى الماء !

وعند عودتنا استوقفنى حسب الله فى منتصف الطريق ..  
وناولنى كوبا من الماء وقال لى :

— خذ رشفة فى فمك • • ورش بها وجه العروسة • • حذار  
أن ترشك قبل أن ترشها !

وعادت العروسة بموكبها من النيل • • ووقفت النسوة قبالتنا  
فى ضوء القمر • • وأشار حسب الله ناحيتهن وقال لى :

— العروسة هى تلك التى تلفها امرأة أخرى معها فى رداثها !  
وتقدمت من النسوة بعد أن ملأت فمى بالماء • • وصاحت  
النسوة يحرضن سلمى :

— حذار أن يغلبك !

وما ان اقتربت حتى فوجئت بالماء يملأ وجهى • • فارتج على  
وسقط الماء من فمى • • وتعالى الضحكات من الرجال والنساء • •  
وقهقه حسب الله وهو يقول لى :

— أهكذا تخذلنا ؟

فردت عليه امرأة عجوز :

— الله نصر قبيلتنا — نحن النساء — على قبيلتكم !

وعدنا الى بيت الزوجية الجديد فقضينا فيه ليلتنا أنا وجاه  
وحسب الله وحوالى عشرة شبان !

\*\*\*

فى الصباح الباكر كان أبى هو أول الداخلين علينا • •  
صافحنى وقال لى وهو يمد لى ورقة من فئة الجنيه :

— بالمال • • والعيال !

وظللنا فى مكاننا والناس يتجمعون الى قبيل الظهر بقليل • •  
وبدأت النساء تضرب بالدفوف — وقد قضين الليلة فى سقيفة عمى —  
ويرددن أغنية المناسبة :

« الشمس طلعت يا أمير قوم بينا »

وبدأ الموكب يتحرك من جديد صوب بيتنا .. وأمام باب بيتنا  
وقف الشبان يرددون نشيدهم فى ضجة وصخب .. فخرجت أمى  
تحمل كوبا من اللبن .. أعطتنى اياه وهى تقول :  
- بالمال والعيال !

فتناولت منه رشفة .. وتناول جاد رشفة واختطف الشبان  
الكوب وراحوا يتعاركون عليه . !  
ووقف أبى على بعد أمتار من أمى فتقدم بى الشبان ناحيته  
وراحوا يتشدون بنفس الضجة والصخب .. ثم أشار حسب الله  
اليهم أن يصمتوا فصمتوا .. وقال يخاطب أبى فى لهجة تقليدية :  
- الأمير يريد العادة !

فقال أبى وصوته يتهدج تأثرا من الفرح :  
- وهبته الستة قراريط الشرقية .. والثلاث نخلات السكوتية  
وتعالت أصوات الشبان بالأناشيد وزغردت النساء !

\*\*\*

وفى المساء سار بصحبتى ثلاثة شبان من بينهم جاد الى بيت  
عمى .. وجلسنا داخل الحجرتين - بيت الزوجية - فقدم لنا بعض  
الطعام .. بعد وقت قليل انصرف الشبان ووجدت نفسى وحيدا ..  
سمعت صوت امرأة عند الباب تخاطب سلمى :  
- اتستحي من ابن عمك ؟

وما لبثت المرأة أن دخلت وبصحبتها سلمى .. قالت لها :  
- سلمى على ابن عمك .. واجلسى على السرير !

فجلسست منكسة الرأس .  
ثم قالت لى المرأة وهى تستعد للذهاب :  
- العادة يا خالة !

وخرجت المرأة وأدرت عينى فى البيت الجديد . . فاذا به قد  
تغير عما كان بالأمس . . أدخل به سرير من الجريد عليه حشوية  
وملاءة بيضاء وعدة وسائد . . والجدران قد أمتلأت بالبروش  
الملونة . . وفوق البروش وضعت أطباق الخوص الزاهية الالوان . .  
وتدلت من السقف ( الشعاليب ) المزركشة بالصدف وقد وضع فى  
كل ( شعلوب ) طبق صغير من الصينى . . ونظرت ناحية سلمى  
وقلت :

- كيف حالك ؟

فلم ترد . . ولبشت أكثر من نصف ساعة أبحث عن مجال  
لحديث بينى وبينها فلا أجد . . وأشارت الى طبق من الخوص له رسوم  
مختلفة عن غيره وقلت :

- ما اسم هذا النوع من الاطباق ؟

فنظرت اليه وعادت الى خفض رأسها وهى تقول :

- اسمه الكردفانى !

\*\*\*

انتهت أجازتى

فى اليوم الذى غادرت فيه القرية . . قال لى أبى :

- عروستك تصحبها معك بعد سنتين . . فالعروسة لا تخرج

عن ديار أهلها قبل هذا الموعد !

وتجمع أبناء القبيلة يودعوننى . . وشد عم عبد الله على يدى

وهمس فى أذنى قائلا :



ـ أحقا انك تعشقى فتاة بحراوية ؟  
فقلت فى دهشة :

ـ من قال لك هذا ؟

فأغمض عينا وفتح أخرى وهو يقول :

ـ وهل تخفى على خافية .. ألم تضبط رسالتها معك ؟!  
ثم تلفت حوله .. ولما اطمأن الى ان أحدا لا يسمعنا همس  
لى قائلا :

ـ ما دمت قد (دخلت) على بنت عمك .. فلا عار عليك بعد  
الآن أن تركتها لتتزوج من غيرك !! .. لكن هل تظن أن البحراويات  
أجمل منها ؟! .. على الطلاق هى أجمل !

« تمت »

المطبعة الثقافية

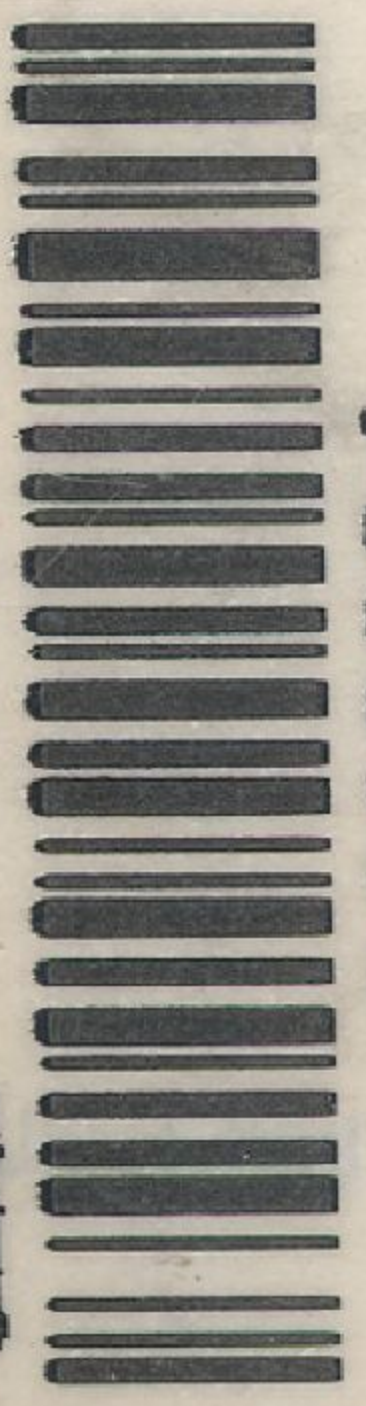
رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٣٩ / ١٩٧٠





6  
s

Bibliotheca Alexandrina



0360994

الهيئة المصرية العامة

التمف ٢٠ قرشا